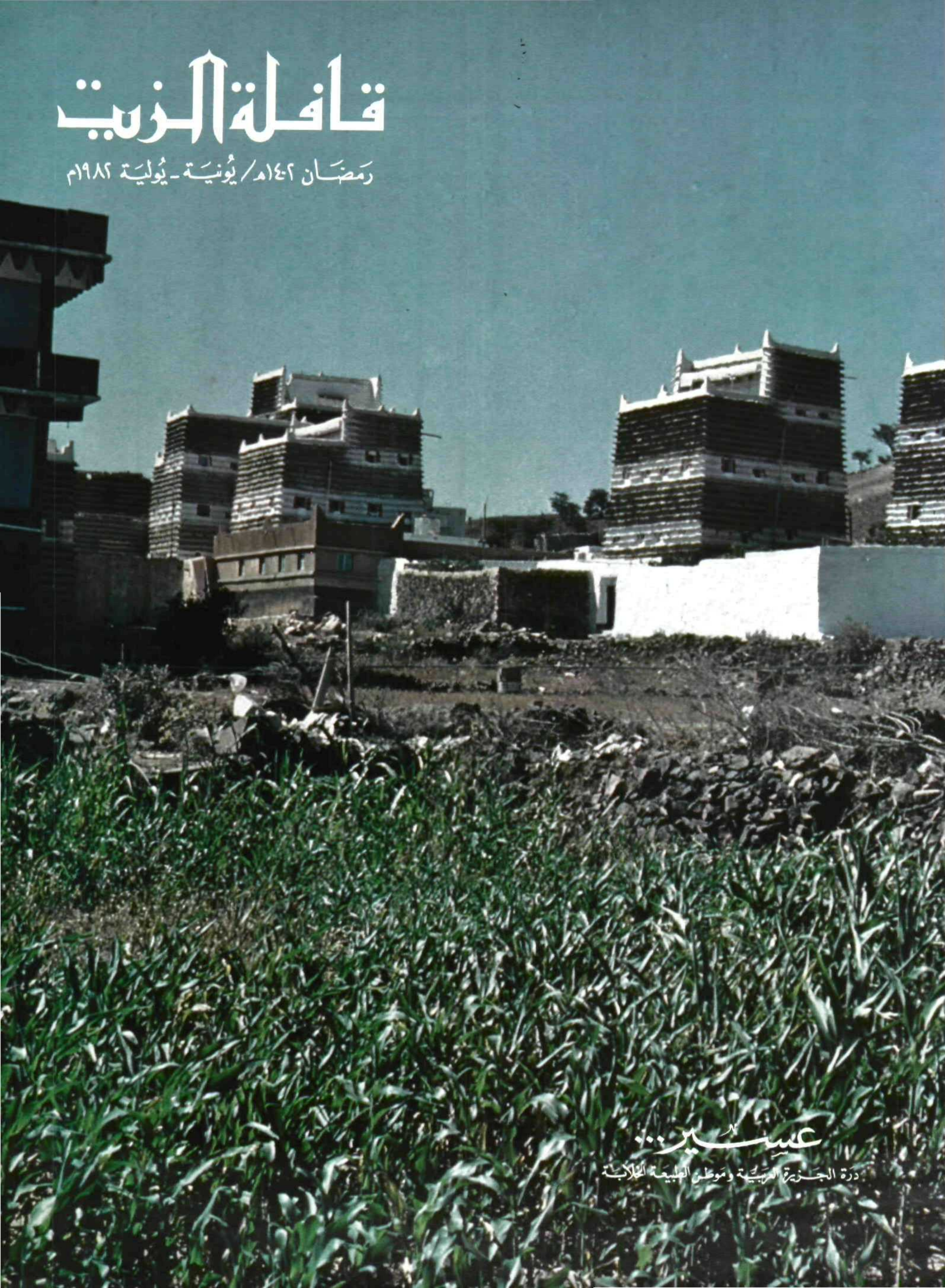


قافلة الزيت
رمضان ١٤٠٢هـ / يونية - يولية ١٩٨٢م
عسير...
درة الجزيرة العربية وموطن الطبيعة الخلابة

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد التاسع / المجلد الثلاثون

رمضان ١٤٠٢هـ / يونيه - يوليه ١٩٨٢م

تصدر شهرياً عن شركة ارامكو لموظفيها
ادارة العلاقات العامة

العنوان

صندوق البريد رقم ١٣٨٩

الظهران - المملكة العربية السعودية

توزع مجاناً

المدير العام : فيصل محمد البسام

المدير المسؤول : إسماعيل ابراهيم نواب

رئيس التحرير : عبدالله حسين الغامدي

المحرر المساعد : عوني ابو كشك

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير.
- كل ما ينشر في قافلة الزيت يعبر عن آراء الكتاب بأنفسهم ولا يعبر بالضرورة عن رأي القافلة أو عن اتجاهها.
- يجوز إعادة نشر المواضيع التي تظهر في القافلة دون إذن مسبق على أن تذكر كمصدر.
- لا تقبل القافلة إلا المواضيع التي لم يسبق نشرها.

صورة الغلاف :

جانب من بلدة آل سليم التي تعكس سمات التطور الذي تعيشه المنطقة ، حيث تجمع بين الطراز القديم والحديث وجمال الطبيعة .

تصوير : علي عبد الله خليفة

طباعة شركة مطابع المطوع - الدمام

DESIGNED AND PRINTED BY AL-MUTAWA PRESS CO. - DAMMAM



١٨



٣٢

في ذمة الله يا خالد

بقلوب يعتصرها الحزن والأسى ، وبنفوس مثقلة بالمرارة والألم ، ودّعت المملكة العربيّة السّعوديّة والعالمان العربي والإسلامي عصر يوم الحادي والعشرين من شعبان ١٤٠٢هـ قائداً من قادة الأمة الإسلاميّة وواحداً من أبر أبنائها المخلصين، هو جلالة المغفور له ، الملك خالد بن عبدالعزيز ، طيّب الله ثراه .

ففي ذلك اليوم الذي أرخت فيه الفجيعة سدولها على العالمين العربي والإسلامي ، كان هذا العدد ماثلاً للطبع ممّا تعذّر افراد صفحات لمآثر جلالته والإنجازات الضّخمة التي تحققت إبان عهده الزّاهر .

وبفقد خالد ، ثكلت الأمة العربيّة والإسلاميّة رجلاً فذاً وقائداً مخلصاً ، كرس وقته وفكره وطاقته لخدمة دينه وبلاده وأمته ، ولنصرة العدل والقضايا الانسانيّة.

لقد مضى خالد في هذا الوقت العصيب من تاريخ أمتنا العربيّة والإسلاميّة التي تمر اليوم بأحداث جسام وتحديات عظام .

لقد كان لذلك الخطب الجلل والمصاب الفادح رنة أسى وحزن عميقين في قلوب الملايين من العرب والمسلمين نظراً لما لجلالته من تاريخ حافل بجلائل الأعمال والمواقف الشّجاعة والحكمة الثاقبة والبصيرة النافذة والرأي الراجح .

نعم .. لقد مات خالد ، وستبقى سيرته العطرة ومآثره الجليلة ذكرى حيّة في قلوب الأجيال الحاضرة والمقبلة ، وسيسجلها التاريخ على صفحاته المشرقة لتبقى نبراساً ساطعاً في مسيرة العرب والمسلمين الحضاريّة .

لقد بذل في حياته أكبر التضحيات من أجل توحيد كلمة هذه الأمة واعلاء شأنها .. فللحق عاش ومن أجله قضى .. تغمده الله بواسع رحمته وأسكنه فسيح رضوانه وأنزله منازل الأبرار والصّديقين ، وحسن أولئك رفيقا .. وإنا لله وإنا اليه راجعون .

هيئة التحرير

حكمة الله في تشريع الصوم

د. أحمد جمال العمري / القاهرة

شاءت حكمة الله في خلقه .. أن يخلق الإنسان لغاية عظمى ، وحكمة جلّى ، أرادها سبحانه ، وهي أن يكون هذا الإنسان خليفة في الأرض ، دون سائر المخلوقات .

« وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة .. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ؟ .. قال اني أعلم ما لا تعلمون » (١) .

والحق سبحانه وتعالى .. عندما خلق الانسان ، لم يتركه سدى ، يهيم على وجهه ، بل هيأ له الأسباب ، وسخّر له الكائنات جميعا ، من أجل أن يستمر بقاؤه ونسله على الأرض .. فالذي يتأمل الكون المادي حولنا ، يرى كل شيء فيه يحيا ويعمل لغيره : فنحن نرى أن الماء للأرض ، والأرض للنبات ، والنبات للحيوان ، والحيوان للإنسان .. والإنسان لمن ؟ .. انه لله .. لعبادة الله الأحد ، وللقيام بحق الله ، وحمد الله ، وشكر الله ، ولا يجوز أن يكون الانسان لشيء آخر في الأرض ، أو في الأفلاك .. لأن كل العوالم العلوية والسفلية مسخرة لله ، وتعمل وفق مشيئته وارادته .

إذن .. فقد خلق الله الانسان لعبادته .. ومقتضى عبادة الانسان لله ، أن يخضع أموره كلها لما يحبه الله تعالى ويرضاه ، وأن يكيف حياته وسلوكه وفقاً لهداية الله وشرعه ، فاذا أمر الله أمرا ، أو نهى نهيا ، أو أحلّ شيئاً ، أو حرم غيره .. كان موقفه في ذلك كله الإذعان والامتثال والخضوع ..

« سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

وإذا كانت حكمة الله من خلقه للانسان « العبادة » . فقد كانت مشيئته ـ سبحانه ـ أن تتنوع هذه العبادة ، بحيث تؤثر في عقله ، وبدنه ، وروحه ، بل وكل حواسه .. فقد أراد الله أن تكون منها العبادة البدنية .. كالصلاة . وأن تكون منها العبادة المالية .. كالزكاة ، وأن يكون من العبادات ما يجمع بين البدن والمال .. كالحج ، والجهاد في سبيل الله . وقد تكون هذه العبادة قولا وتضرعا .. كالدعاء ، وذكر الله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وشاءت حكمة الله سبحانه أن يكون من هذه العبادة ، ما ليس قولا ولا فعلا ، ولكنه كف ، وامتناع ، وسلوك وصبر .. وهو الصـــوم . امتناع عن الأكل والشرب ، ومباشرة النساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

وهذا الامتناع والترك ـ ان بدا سلبيا في مظهره .. فهو عمل ايجابي في حقيقته وجوهره ، إذ هو كف النفس عما تشتهيه ، بنية التقرب إلى الله تعالى ، فهو بهذا عمل نفسي ارادي ، له ثقله في ميزان الحق والخير ، والقبول عند الله سبحانه .

النية إذن هي الفيصل في كل فعل وترك ، وهل الدين إلا فعلٌ وتركٌ ؟ فعلٌ للمأمور به ايجابا أو استحبابا ، وتركٌ للمنهي عنه تحريما أو كراهة .

ولقد اختار الله ـ بحكمته ـ لهذا الصيام شهرا مباركا كريما ، له في نفوس المسلمين مكان كريم .. فهو الشهر الذي نزل فيه أول فوج من آيات القرآن العزيز ، حملها الروح الأمين ، إلى قلب النبي الهادي الكريم ..

« شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .

وجدير بشهر اصطفاه الله ، لينزل فيه أفضل وآخر كتبه ، إلى خير خلقه ورسله ، أن يكون أهلا ليفرض فيه تلك العبادة السنوية « الصيام » .

لقد فرض الحق سبحانه على عباده الصيام في رمضان ، وما فرضه إلا لحكَم بالغة ، وأسرار عليا ، نعرف منها ما نعرف ، ونجهل منها ما نجهل ، ويكشف

الزمن عن بعضها ما يكشف ، فعلينا أن نتأمل حكمة الله من وراء هذا الجوع والعطش ، وأن ندرك حِكَمه ، حتى نؤديه كما أراده الله ، لا كما اشتهاه الناس ..

وهنا نقف قليلا لتقرير أمر هام .. ان أسرار هذا الصوم – كما أرادها الله جلت حكمته ، لا يمكن أن تُدرَك إلا إذا أدركنا سر هذا الانسان ..

وهذا يجعلنا نطرح سؤالا جوهريا : ما الانسان ؟ وما حقيقته ؟

هل هو هذه الجثة القائمة .. وهذا الهيكل المنتصب ؟

هل هو هذه المجموعة من الأجهزة والخلايا واللحم والدم ، والعظم والأعصاب ؟

إن كان الانسان .. هذه مواصفاته .. فما أحقره وما أصغره !!

نعم .. ليس الانسان هو ذلك الهيكل المحسوس ، إنما هو روح سماوي يسكن هذا الجسم الأرضي ، وسر من الملأ الأعلى في غلاف من الطين .

« إذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من طين ، فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (٢).

ذلكم هو الانسان بجوهره ، كما أراده الله ، روح علوي ، وجسد سفلي ، فالجسد بيت ، والروح صاحبه وساكنه ، والجسد مطية ، والروح راكب مسافر ، ولم يخلق البيت لنفسه ، ولا المطية لذاتها ، ولكن البيت لمصلحة الساكن ، والمطية لمنفعة الراكب ، فما أعجب هؤلاء الآدميين ، الذين أهملوا أنفسهم ، وعنوا بمساكنهم وجعلوا من ذواتهم خدّاما لمطاياهم ، وأهملوا أرواحهم وعبدوا أجسادهم ، فللجسد وحده يعملون ، ولاشباع غرائزه الدنيا ينشطون ، وحول بطونهم وفروجهم يدورون (٣) .

أولئك الذين وصفهم الله بقوله : **« أرأيت من اتخذ الهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون .. ان هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا » (٤) .**

ذلكم هو الانسان روح وجسد ، فلجسده مطالب من جنس عالمه السفلي ، وللروح مطالب من جنس عالمها العلوي ، فإذا أخضع الانسان أشواق روحه لمطالب جسده ، وحكّم غريزته في عقله ، استحال من ملاك رحيم إلى حيوان ذميم ، وربما إلى شيطان رجيم .. أما إذا سما الانسان بنفسه ، وأيقن سرّ الله فيه ، وحكّم جانبه السماوي في جانبه الأرضي .. وغلب أشواق الروح على نوازع الجسد ، فقد صار ملاكا ، أو خيرا من الملاك **« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. أولئك هم خير البرية » (٥) .**

ومن هنا فرض الله سبحانه وتعالى « الصيام » عبادة روحية ، عبادة تحرر الانسان من سلطان الغرائز ، وتطلقه من سجن جسده ، وتتغلب على نزعات شهواته ، وتجعله أشبه بالملائكة . فليس عجيبا أن يرتقي روح الصائم ، ويقترب من الملأ الأعلى ، ويقرع أبواب السماء بدعائه فتفتح ، ويدعو ربه فيستجيب له ، ويناديه فيقول سبحانه : « **لبيك عبدي لبيك** » . من أجل ذلك قال النبي المصطفى ، صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا تردّ دعوتهم : الصائم حين يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم » (٦) .

وإذا كان في الصيام فرصة .. أي فرصة لتقوية الروح ، ففيه فرصة ، أي فرصة لتقوية الإرادة . فالصائم يجوع وأمامه شهي الغذاء ، ويعطش وبين يديه بارد الماء ، ويعف وبجانبه زوجته ، ولا رقيب عليه في ذلك إلا سبحانه ، ولا سلطان إلا ضميره ، ولا يسنده إلا إرادته القوية الواعية ، يتكرر ذلك نحو خمس عشرة ساعة أو أكثر كل يوم ، وتسعة وعشرين يوما أو ثلاثين في كل عام .

فأي مدرسة تقوم بتربية الإرادة الإنسانية ، وتعليم الصبر الجميل كمدرسة الصيام التي يفتحها الإسلام اجباريا للمسلمين في رمضان ، وتطوعا في غير رمضان ؟

ولأن رمضان يعلم الصبر نسبه الرسول إليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « صوم شهر الصبر ، وثلاثة أيام من كل شهر ، يذهبن وخز الصدر » ، وروي عنه في حديث آخر : « لكل شيء زكاة ، وزكاة الجسد الصوم ، والصوم نصف الصبر » (٧) . وانما كان « الصوم نصف الصبر » لأن في الانسان قوى ثلاثا : قوة شهوية ، كالتي في البهائم ، وقوة غضبية كالتي في السباع ، وقوة روحية كالتي في الملائكة ، فإذا تغلبت قوته الروحية على احداهما كان ذلك نصف الصبر ، وفي الصوم يتغلب « المسلم » على قوته الشهوانية من بطن وفرج ، فكان الصوم حقا نصف الصبر .

وحسبنا أن نتذكر نداء النبي المصطفى – صلى الله عليه وسلم – للشباب :

« يا معشر الشباب : من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فانه له وجاء » (٨) .

وحكمة الهية أخرى – أرادها الحق سبحانه من

الصوم .. وهي معرفة المرء بأنعام الله عليه .. فالانسان إذا غمرته النعم ، قلّ شعوره بها ، النعم لا تعرف إلا بفقدانها ، فالحلو لا تعرف قيمته إلا إذا ذقت المر ، والنهار لا تعرف قيمته إلا إذا جنّ عليك الليل « وبضدها تتميز الأشياء » . ففي الصوم .. معرفة لقيمة الطعام والشراب والشبع والري ، ولا يعرف ذلك إلا إذا ذاق الجسم حرارة العطش ، ومرارة الجوع . ومن أجل ذلك ورد أن النبي المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا ، قلت : لا يارب ، ولكن أشبع يوما ، وأجوع يوما .. فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك » (٩) .

وحكمة الهية ثالثة .. وهي الشعور بالعبودية الكاملة لله . ففي الصوم تمام التسليم لله ، وكمال العبودية لرب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، وهذه الحكمة هي القدر المشترك في كل عبادة ، والهدف الأسمى من كل فريضة ، ولن تكون العبادة عبادة ، ولا العبد عبداً إلا بها . يقول رب العباد : أمرت ونهيت ، ويقول العبـــاد : « **سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنـــا وإليك المصير** » **(١٠)** .

وأظهر هذا الخضوع والتسليم والعبودية يكون في الصوم خاصة .. فالصائم يجوع ويعطش ، وأسباب الغذاء والري أمامه ميسّرة ، لولا حب الله ، والرغبة في رضاه ، وايثار ما عنده ، ولهذا نسب الله الصيام إلى عزته وجلاله ، وتولى جزاء الصائمين بنفسه ، فقال جل جلاله في حديث قدسي : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام ، فانه لي وأنا أجزي به ، يدع طعامه من أجلي ، ويدع شرابه من أجلي ، ويدع لذته من أجلي ، ويدع زوجته من أجلي » (١١) .

ومن المهم .. ألا نغفل الجانب الصحي للصيام ، فهو بالاضافة إلى كل ما سبق فرصة لتقوية البدن ، فان كثيرا مما يصيب الناس من أمراض ، إنما هو ناشىء من بطونهم ، التي يتخمونها بكل ما تشتهي ، غير مفرقين بين ما ينبغي ، ولهذا كانت اشارة النبي ، صلى الله عليه وسلم :

« ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، بحَسْبُ ابن آدم أكيلات يُقِمْن صلبه ، فان كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » (١٢) .

وإذا كانت البطن مستنقع البلايا ، وكانت المعدة بيت الداء ، فان الحمية – أي الامتناع عن الأكل – رأس الدواء . وليس كالصوم فرصة تستريح فيها المعدة ويتخلص الجسم من كثير من فضلاته الضارة . لذلك أمرنا المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، «صوموا تصحوا» (١٣)

والله سبحانه وتعالى رؤوف بعباده ، لذلك فهو جل جلاله – لا يكلف عباده فوق طاقتهم .. « **لا يكلف الله نفسا إلا وسعها** » . وقد اقتضت رحمته وحكمته في تشريع الصوم ، أن يكون هناك جانب من التخفيف على عباده غير المستطيعين ، لأسباب خارجة عن ارادتهم كالمرض أو السفر أو الجهاد . وهذا مبدأ نزل به القرآن منذ مطلع فجر الدعوة في مكه .. ففي سورة المزمل جاء قول الله : « **علم ان سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض ، يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله ، فاقرأوا ما تيسر منه** » **(١٤)** . لذلك كان هذا التخفيف رخصة انشرح لها قلب الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين – وانتفعوا بها بعد أن فقهوا مغزاها من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ونهلوا من نبع النبوة ، ولم يحجروا مـــا وسع الله ، وكيف لا ، وقد تعلموا في مدرسة النبوة :

« ان الله يحب أن توتى رخصه ، كما يكره أن توتى معصيته » (١٥) .

ذلكم هو الصيام في الإسلام ، لم يشرعه الله تعذيبا للبشر ، ولا انتقاما .. كيف ؟ وقد ختم الله سبحانه وتعالى آية الصوم بقوله : « **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** » **(١٦)** . وانما شرعه – جلت حكمته – ايقاظا للروح ، وتصحيحا للجسد ، وتقوية للإرادة ، وتعويداً على الصبر ، وتعريفا بالنعمة ، وتربية لمشاعر الرحمة ، وتدريبا على كمال التسليم لله رب العالمين □

---

(١) سورة البقرة ، آية / ٣٠ .
(٢) سورة / ص ، آية / ٧١ ، ٧٢ .
(٣) الدكتور يوسف القرضاوي – العبادة في الإسلام ، ص / ٢٧٣ ، ط . بيروت .
(٤) سورة الفرقان ، آية / ٤٣ ، ٤٤ .
(٥) سورة البينة ، آية / ٧ .
(٦) رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه .
(٧) رواه ابن ماجه .
(٨) رواه البخاري .
(٩) رواه الترمذي .
(١٠) سورة البقرة ، آية / ٢٨٥ .
(١١) رواه أبو خزيمة في صحيحه .
(١٢) رواه ابن ماجه والترمذي .
(١٣) رواه الطبراني .
(١٤) سورة المزمل ، آية / ٢٠ .
(١٥) رواه أحمد .
(١٦) سورة البقرة ، آية / ١٨٥ .

لقاء مع :

د. بكر عبد الله بن بكر

أعده وأجراه : سليمان نصر الله / هيئة التحرير



لم يكن لقاؤنا بالدكتور بكر عبد الله بن بكر ، مدير جامعة البترول والمعادن بالظهران لقاءا رسميا ، كما هو مألوف في الأوساط الصحفية ، بل كان بمثابة دردشة ودية ، أو قل رحلة سياحية حملنا فيها معاليه عبر أفكاره وطموحاته وخبراته المتعددة . فعندما اتصلت به هاتفيا مبديا رغبتي في مقابلته ، سألني بظرفه المعهود : هل يكفيك نصف ساعة يا أبا داود ؟ فأجبته على الفور : ان نصف ساعة من وقتك الثمين كثير عليّ . قلت ذلك وأنا موقن في قرارة نفسي أن ساعات طويلة لا تكفي لمثل هذا اللقاء الفكري . وتم اللقاء ، ومنحني معاليه من الوقت ما لم أكن أتوقع .

والدكتور بكر عبد الله بن بكر ، عدا عن كونه مديرا لواحد من أرفع الصروح العلمية والتقنية في العالم العربي ، فهو من رجال التربية البارزين في المملكة العربية السعودية ومن إدارييها المرموقين ، شارك في كثير من المؤتمرات والندوات المتعلقة بالتربية ، والتعليم ، والتخطيط ، والتنمية ، كما نشر العديد من المقالات المتنوعة حول موضوعات حيوية باللغتين العربية والانكليزية . وهو ينطلق في كل ذلك من خلفية علمية وعملية وإدارية متعددة الجوانب . فبعد مرحلة الدراسة الثانوية في مدينة الطائف ، التحق بجامعة تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية ، حيث نال درجة البكالوريوس في هندسة البترول ، وعاد ليعمل مهندسا للبترول في شركة الزيت العربية الأمريكية « أرامكو » ، ثم انتقل ليسهم في تأسيس كلية البترول والمعادن الوليدة . وبعد تأسيس الكلية ، واصل مسيرته الأكاديمية ، فنال درجة « الماجستير » في إدارة الأعمال من جامعة ستانفورد ، ثم درجة الدكتوراه في إدارة الأعمال من جامعة جنوب كارولينا بالولايات المتحدة الأمريكية . هذا وقد عمل بوظيفة مهندس بترول في شركة الزيت العربية الأمريكية « أرامكو » لفترة من الزمن ثم عمل كمساعد لمحافظ مؤسسة بترومين . وبعد ذلك انتقل إلى كلية البترول والمعادن قبل أن تتحول إلى جامعة حيث شغل منصب مساعد لعميد الكلية . ثم أصبح عميدا للكلية فيما بعد ، وعندما جرى تحويل الكلية إلى جامعة أصبح أول مدير لها . هذا بالاضافة إلى كونه عضوا في مجالس عدد من الجامعات والمنظمات والجمعيات منها جامعة الملك سعود ، وجامعة الملك فيصل ، وجامعة الملك عبد العزيز ، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ومجلس أمناء جامعة قطر ، والكلية الجامعية بالبحرين ، واتحاد الجامعات العربية ، والمنظمة العالمية للعلوم والتكنولوجيا والإنماء بكندا ، والجمعية الإدارية الأمريكية للمهندسين وغيرها .

هذا وقد أضفى الدكتور بكر على هذا اللقاء من عمق تجربته وسعة اطلاعه على مجريات الأمور حيوية انعكست أبعادها على الموضوعات التي تطرقنا إليها في حديثنا معه ..

■ **لابد أن تكون قد لمست بعض الأوضاع الخاطئة في العملية التعليمية خلال المراحل الدراسية التي مررت بها ، ثم قمت بتصحيحها أو تعديلها إلى الأفضل عندما أصبحت في وضع يمكنك من ذلك. حبذا لو حدثتنا عن مثل تلك الأوضاع والمواقف .**

لا شك أن كل انسان ، خلال المراحل التعليمية التي يمر بها ، تترسب في نفسه أشياء كثيرة ويتأثر بمؤثرات شتى . ويكوّن آراءه الخاصة به والتي يتصور أنها على صواب ثم يتضح له خطأ بعضها أو كلها عندما يصبح أكثر نضجا . وأنا عندما أسترجع

الفترات الدراسية التي مررت بها استطيع أن أشير إلى بعض الأوضاع الخاطئة ، منها جمود المناهج من ناحية ، وعدم اعطاء الطالب المرونة الكافية لينمو وتتضح ميوله واتجاهاته من ناحية أخرى . كما لاحظت التردي المستمر في المستوى العلمي للأستاذ ، أضف إلى ذلك وجود هوة سحيقة بين الطالب والأستاذ قد يكون مردها كثرة عدد الطلاب في الفصل الواحد وتدني كفاءة المدرس . أما بالنسبة للمرحلة الجامعية فان أحد الأخطاء التي لمستها هو توجيه الطلاب إلى تخصصات لا تتلاءم مع امكاناتهم وقدراتهم وميولهم الطبيعية . فهناك على ما يبدو شيء مفقود في عملية ربط الواقع بالنظريات ، أي ربط ما يدرسه الطالب بالواقع الموجود في الحياة . تلك هي بعض الأوضاع الخاطئة التي لمستها خلال مسيرتي العلمية . وقد عملت جاهدا بالتعاون مع رجال التربية في المملكة على تلافي هذه الأخطاء بتطوير المناهج لمسايرة العصر الذي نعيش فيه ، وتصميمها على نحو يسمح للطالب باختيار مواد معينة سواء في حقل تخصصه أو خارجه لتنمية قدراته الذاتية والاتجاه إلى ما يرغب . كما عملنا في جامعة البترول والمعادن على ربط الأستاذ بالطالب ربطا وثيقا عن طريق تحديد عدد طلاب الفصل ، بحيث لا يزيد على عشرين طالبا ، وبذلك يصبح الأستاذ صديقا بل أخا للطالب ، يقدم له التوجيه كلما دعت الحاجة إلى ذلك . أما بالنسبة لاختيار التخصص فإننا الجامعة الوحيدة في العالم العربي التي تمنح الطالب فيها فترة زمنية كافية ، قد تتجاوز السنتين ، قبل أن يقرر مجال التخصص ، لأننا وجدنا أن أفضل من يقرر هذا الأمر هو الطالب نفسه بتوجيه من المختصين في الجامعة . وفيما يتعلق بربط الواقع بالنظريات فقد كانت جامعة البترول والمعادن رائدة في تقديم فكرة التعليم التعاوني في العالم العربي بحيث تتخلل المسيرة الدراسية للطالب في الجامعة فترة تدريب عملية في المؤسسات الصناعية سواء داخل المملكة أو خارجها تحت اشراف الجامعة . وقد أثبت هذا البرنامج نجاحا كبيراً ، وعمم الآن على مختلف التخصصات . فقد لمسنا اقبالا كبيرا عليه من قبل الشركات والمؤسسات لدرجة بات معها تعذر تلبية طلبات الشركات خارج المملكة . ولاحظنا أن الطالب بعد انقضاء فترة البرنامج يعود وهو أكثر نضجا وتقديرا للمادة النظرية التي يدرسها ، وأكثر تفاعلا مع محيطيه ، وأكثر استعدادا للمشاركة في مسيرة التنمية والبناء .

■ **تستقبل جامعتكم كل عام أفواجا جديدة من طلبة المدارس الثانوية ، فهل تواجهها مصاعب من نوع معين ؟ وهل هناك نوع من التنسيق بين مؤسسات التدريس الجامعي والمدارس الثانوية في المملكة يهدف إلى تسهيل عملية انتقال الطالب من مرحلة الدراسة الثانوية إلى مرحلة الدراسة الجامعية ؟**

لاشك أن هناك صعوبة في انتقال الطالب من مرحلة التعليم الثانوي إلى مرحلة التعليم الجامعي ، وتعزى هذه الصعوبة إلى عوامل مختلفة . وأعتقد أن هذه الصعوبة ليست مقصورة على المملكة بل هي موجودة في جميع انحاء العالم . أما بالنسبة لجامعة البترول والمعادن فأستطيع القول ان الصعوبة تنبع من كون الطالب في المرحلة الثانوية أقل انضباطا منه في رحاب الجامعة . ففي الجامعة يستقل الطالب عن أهله وذويه وينسلخ إلى حد ما عن بيئته التي نشأ فيها إذ ينتقل إلى مجتمع جديد عليه ، مما يقتضيه التكيّف مع هذا الوضع الجديد تدريجيا . وإذا أضفنا إلى هذا صعوبة الدراسة في الجامعة بالمقارنة بالدراسة في المرحلة الثانوية ، نجد أن الطلاب يواجهون صعوبات في الشهور الأولى ، ويتضح ذلك من نسبة الأعداد التي تتسرب من الجامعة في هذه الفترة .

■ **ما وجه الصعوبة التي يواجهها الطلاب بالنسبة للدراسة الجامعية في السنة الأولى وهل لمناهج المرحلة الثانوية أثر في ذلك ؟**

يتم التدريس في جامعة البترول والمعادن باللغة الانكليزية ، ومستوى تدريس اللغة الانكليزية في المدارس الثانوية لا يسمح للطالب بمتابعة المحاضرات بسهولة ، الأمر الذي يضطرنا إلى اعطاء الطالب دورات مكثفة باللغة الانكليزية لمدة سنة كاملة ، حتى يكتسب الطالب المهارات اللازمة لمتابعة المحاضرات وفهمها . ونحن في الجامعة ندرك ما يواجهه الطالب من صعوبات في السنة الأولى من المرحلة الجامعية ، وهي صعوبات يمكن تذليلها إذا ما تعود الطالب على الانضباط والمواظبة والتعاون مع المسؤولين في الجامعة ومع الأساتذة . وهذه الصعوبات في رأيي تمثل ضغوطا على الطالب ، ولكنها ضغوط في سبيل الوصول بالطالب إلى النتيجة المرجوة ، وهي الخروج من السنة الأولى بوضع أفضل بالنسبة إلى اللغة الانكليزية والانتظام والتكيّف مع الوضع في الجامعة .

■ **ذكرت أن نسبة من الطلاب تتسرب من الجامعة ، فما هي في رأيك الأسباب لهذه الظاهرة وما هي الإجراءات العلاجية التي تقترحها للحد من تلك الظاهرة ؟**

هذه الظاهرة عالمية وإلى حد ما صحية ، لأن أي جامعة تحرص على مستوياتها العلمية تطالب الطالب الوصول إلى هذه المستويات . وفي جامعة البترول والمعادن تصل نسبة التسرب نحو عشرين في المائة في السنة التحضيرية . ويعزى التسرب في هذه الفترة إلى أسباب شخصية أو أكاديمية أو اجتماعية ، فكثيرا ما نرى أن طالبا يترك الجامعة لصعوبة الدراسة فيها ، فهو يتلمس لنفسه مخرجا في جامعات أخرى تتلاءم مع قدراته . ونحمد الله على أن عدد الجامعات والكليات في المملكة يزداد سنة بعد أخرى مما يوفر للطالب البدائل الكثيرة . وأود هنا أن أشير إلى أن الفكرة الأساسية التي بنيت عليها الجامعة هي إمداد المملكة بما تحتاجه

من كوادر مؤهلة للتصنيع وخاصة في صناعة البترول والمعادن . وإذا ما أردنا النجاح في هذا المجال فيجب أن يكون مستوى خريجي جامعة البترول والمعادن مستوى عالميا . وللوصول إلى هذا المستوى فعلينا تحقيق معايير ومستويات أداء مطلوبة لا يمكن التساهل فيها . فالطالب الذي لا يستطيع أن يصل إلى هذه المستويات يمكنه البحث عن مستويات تتلاءم وامكاناته وقدراته العقلية . ومن هنا أقول أن حل ظاهرة التسرب على حساب المستوى التعليمي الجامعي أمر لا نقبله . كما يمكن اعتبار هذه الظاهرة طبيعية وليست وضعا تنتقد عليه أية جامعة . فنسبة التسرب من الجامعات الممتازة في العالم أعلى بكثير مما هو موجود عندنا ، مرد ذلك إلى اصرارها على المحافظة على مستواها العلمي . واسهاما منا في التخفيف من هذه الظاهرة فقد أوجدنا السنة الإعدادية في الجامعة لسد الفجوة بين مستوى الدراسة الثانوية ومستوى الدراسة الجامعية من ناحية ، وتعويد الطلاب على العمل الجاد من ناحية أخرى . كما لدينا جهاز خاص للإرشاد الأكاديمي مهمته توجيه الطالب ومتابعة ورصد خطواته لتجنيبه الفشل بقدر الإمكان .



■ **بحكم منصبك كأحد رجال التربية والتعليم ، هل ترى أن المناهج الدراسية في مختلف مراحل التعليم في المملكة تخدم خطط التنمية المنشودة ، وهل تؤهلنا للحاق بركب التقدم ، والتقنية المعاصرة ؟**

دعني أضرب لك مثلا بسيطا لتوضيح الصورة كما أراها في المملكة . يمكن تشبيه المملكة قبل سنوات قليلة بالبيت الخالي من الأثاث من ناحية التعليم والتصنيع ، فأية قطعة أثاث تشتريها تجد لها في هذا البيت مكانا دون عناء . أما عندما يكتمل تأثيث البيت يصبح اختيار القطع الجديدة الإضافية أكثر صعوبة . فقبل بضع سنوات كانت هناك حاجة ماسة لأي عدد من الخريجين في أي تخصص من التخصصات . أما اليوم فقد أصبح الأمر مختلفا ، فنحن الآن في المملكة نمر في مرحلة يجب فيها توجيه التعليم العالي على نحو يخدم احتياجات خطط التنمية بصورة أكثر دقة من الماضي ، خاصة وأن أعداد الخريجين أصبحت تتزايد بصورة ضخمة ، وقد نواجه مستقبلا مشكلة واجهتها دول أخرى وهي مشكلة وجود أعداد في بعض التخصصات تزيد على الحاجة الفعلية . وأعتقد أن المسؤولين عن التعليم العالي يدركون هذه الحقيقة ، وأرجو الله أن يجنبنا الوقوع في الخطأ الذي وقعت فيه الدول الأخرى . أما بالنسبة للحاق بركب التقدم التقني فلدي قناعة كاملة أننا لن نستطيع تحقيق ذلك إلا عن طريق واحد هو البحث العلمي . فالنظريات الاقتصادية التي تعودنا سماعها القائلة بأن التقدم يمكن احرازه عن طريق وجود رأس المال والأيدي العاملة والموارد والإدارة الجيدة ، هذه النظريات بدأت تفقد أهميتها . ان مفتاح التقدم هو البحث العلمي الجاد الذي يؤدي إلى الابتكارات والاختراعات والحلول الأصيلة لمشاكل التنمية . فمقياس التقدم في بلد ما يكمن في امكانات مراكز البحوث العلمية فيه . ونحن في جامعة البترول والمعادن نقوم بتجربة لم يقم بها أي بلد عربي قبلنا ، بالمستوى وحجم الأهداف التي نسعى إلى تحقيقها ، وهي التجربة المتمثلة بمعهد البحوث ، الذي يلاقي من الدعم المادي الشيء الكثير من قبل الدولة ، فنحن نسعى إلى تجميع نحو ٥٠٠ عالم ، يتفرغون إلى البحث العلمي ، بحيث نزاوجهم على مشاريع تنموية ، ونؤمن لهم أحدث المعدات وتوفير أفضل مناخ إداري ممكن ، على أمل الإسهام في حل المشاكل التقنية . فهناك الآن مجموعات من العلماء والباحثين تركز جهودها على مسائل غاية في الأهمية في المملكة ، كمصادر المياه ، وبدائل الطاقة ، واستخدام بعض المواد المتوفرة كالكبريت والرمال في أعمال البناء ، وايجاد الحلول لظاهرة التآكل الذي يستنزف أموالا ضخمة من اقتصادنا ، وغير ذلك من أمور حيوية . ومع تفاؤلنا الكبير بتحقيق الأهداف المرجوة ، فهناك سلبيات قد تحول بيننا وبين الوصول إلى ما نهدف إليه . ولعل أشد ما نخشاه هو أن يتحول هذا المعهد الحلم إلى مكان للمناقشات النظرية والفكرية ، التي تنتج أوراقا لبحوث تنشر في المجلات العالمية ، أو تنتج أفكارا براقة لا تؤدي إلى حلول ملموسة تسهم في تنمية البلد اقتصاديا وتقنيا .

■ **كثر الحديث مؤخرا عن قضية التعريب في الوطن العربي ، فما رأيك في إحلال اللغة العربية مكان اللغة الأجنبية في تدريس المواد العلمية في الجامعات العربية ؟**

قبل أن أبدي رأيي حول هذا الموضوع أود أن أشير إلى أنه كان في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية في الأندلس ، كان هناك تقدم علمي وعلماء يكتبون وينشرون باللغة العربية . وكان الطلاب الأوروبيون وخاصة من روما وشمال أسبانيا وبعض المقاطعات الفرنسية يؤمون المراكز العلمية العربية للدراسة باللغة العربية . ولدي في مكتبتي مصدر يتضمن رأي أحد كبار رجال الكنيسة في ذلك العصر يقول فيه : « ان طلابنا يذهبون لدراسة العلوم الحديثة في بلاد الأندلس المسلمة ، ثم يعودون ليقولوا أنه لا يمكن كتابة

العلوم الحديثة إلا باللغة العربية » . ويعلق القسيس على ذلك بقوله : « ان هذا الرأي خطير تجب محاربته ، وعلينا أن نحاول جاهدين الاقتباس والترجمة ثم التعليم بلغتنا » . وعليه ، فان من يقول ان اللغة العربية عاجزة عن استيعاب التقنية الحديثة رغم اتساعها هو قول مرفوض من أساسه . فإذا كان هناك علة تحول دون ذلك ، فأقول أن العلة فينا نحن العرب ، أو كما قيل « نعيب زماننا والعيب فينا » ، نحن متاخرون ماديا رغم تقدمنا في الناحية الدينية والناحية الاجتماعية ، أما في الناحية التقنية فنحن متأخرون ، حتى عن الدول نصف المتقدمة ، وعلينـــا مواجهة هذه الحقيقة المرة .

ان مصادر التقنية في العالم تكتب وتؤلف بلغات غير العربية ، تماما كما كانت اللغة العربية بالنسبة لأوروبا في العصور الوسطى ، حينما كانت العلوم العربية الإسلامية في أوج ازدهارها . وفي رأيي أنه إذا توخينا الإسراع في استخدام اللغة العربية ، فالتركيز يجب ألا يقتصر على الترجمة كما يقول البعض ويتردد هذه الأيام ، بل يجب التركيز على اعداد الأساتذة والعلماء أولا ، وانشاء مناخ صناعي وتقني في البلاد ثانيا ، لا على مجرد محاولة ايجاد ألفاظ عربية لمصطلحات علمية وتقنية قد يساء في كثير من الأحيان تفسيرها أو فهمها .

■ كيف تتصور أوضاع الجامعة عام ٢٠٠٠ م من واقع تقديراتك الشخصية ؟

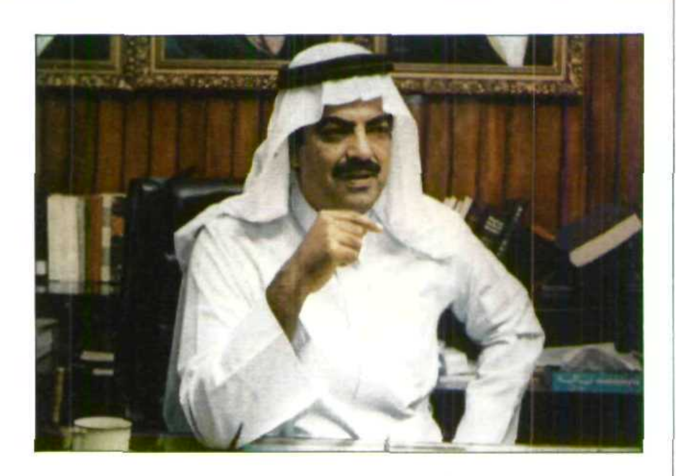
ان كل مسؤول عن مؤسسة مهما صغرت يجب أن يكون لديه رؤية أو تصور يتخطى عشر سنوات على أقل تقدير ، عما يجب أن تكون عليه المؤسسة أو ما تهدف إليه . وأنا شخصيا منذ توليت عملي في الجامعة أتطلع إلى الصورة المشرقة التي يجب أن تكون عليها هذه الجامعة ، بفضل ما تغدقه الدولة عليها من دعم متواصل واهتمام أصيل . وأعتقد أننا بفضل الله قد أنجزنا جانبا كبيرا من الرؤية المرسومة وهي انشاء مؤسسة تعليمية من الطراز الأول لتخريج مئات من الشبان في حقول تقنية حديثة لتسد فراغا كبيرا في المملكة وخارجها . فنحن اليوم نرى أن ركائز النهضة الصناعية في المملكة تعتمد إلى حد كبير على الخريجين . أما ما نطمح إليه فهو كيفية الانتقال بالجامعة من مؤسسة تدريبية إلى مركز اشعاع علمي يتصف بالعالمية وينتج التقنية التي تتلاءم ومتطلباتنا وظروفنا . واستطيع القول أننا قد وضعنا أقدامنا على أول الطريق ، ولعل معهد البحوث الذي باشر نشاطاته هذا العام يحقق الهدف منه ويسهم اسهاما ايجابيا في تحسين مرافق الانتاج الصناعية وغيرها . وانني أتصور الجامعة عقب الانتهاء من المدينة الجامعيـــة ، والمرافق الأكاديميـــة ومشروع اسكان الطلاب الجديد وقد غدت في عداد الجامعات العالمية التي يشار إليها بالبنان .

■ نعرف أنك في فترة من حياتك العملية قد عملت كمهندس بترول ، ثم أصبحت فيما بعد مديرا لجامعة البترول والمعادن ، فكيف ترى أنه يمكن التوفيق بين الإدارة والممارسة الفعلية لحقل التخصص ومدى نجاح مثل هذا الشخص في العملية الانتاجية ؟

بالنسبة لي فأنا إداري وتخصصي إدارة الأعمال في دراساتي العليا رغم أن شهادتي الأولى كانت في هندسة البترول ، وبدأت حياتي العملية في هذا المجال . وأعتقد أنني كنت أول مهندس بترول سعودي يلتحق بأرامكو . أما بالنسبة للإدارة فلا أعدو الحقيقة إذا قلت إن المراكز الإدارية هي أكثر المراكز حساسية وأهمية في أي تنظيم ، وكلما ارتفع المركز زادت أهميته ، لأن الإداري هو الذي يقود ويخطط وينظم عملية الانتاج ويشرف عليها ويصحح مسارها . ولابد أن تتوفر في الإداري مزايا معينة حتى يكون ناجحا . فهو ليس ذلك الشخص البليغ ، الذرب اللسان ، الذي يعرف كيف يعلق على ما يصل إلى يده من أوراق ، ويشارك في اجتماعات



لا نهاية لها ، ذلك المفهوم السائد عن الإداري في العالم العربي . ان العمل الإداري هو عمل مهني بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، وليس عملا دعائيا أو عملا ذا مردود اجتماعي أو عملا مظهريا . فالإداري الناجح يكتسب المؤهلات المطلوبة للنجاح من التعليم العام أو التعليم التقني أو من تجارب الحياة العملية بالإضافة إلى مكونات شخصيته الموروثة والمكتسبة ، فلا ضير أن يكون مدير مؤسسة صناعية ما شخصا متخرجا من كلية اللغة العربية أو كلية الشريعة شريطة ألا يصل إلى المركز الإداري إلا بعد أن يكون قد مر بمراحل يثبت فيها جدارته وفهمه للعملية الإدارية والعملية الانتاجية لمؤسسته . فعلى سبيل المثال لا الحصر ، أنا لا أتصور أن يكون هناك مدير لجامعة لم يتذوق طعم التدريس ، ولم يختبر مشاكل الطلاب ، ولم يشارك في عملية تطوير المناهج ، ولم يقدم بحوثا علمية . وهذا مبدأ ينسحب على جميع المؤسسات الانتاجية الأخرى . كما لا أتصور مديرا ناجحا لشركة تنتج آلات تكييف مثلا دون أن يعرف ماهية هذا العمل ، وشعور العاملين في الشركة



ومشاكلهم ، وما يطرأ على هذه الصناعة من جديد ، وما يتم من بحوث علمية ذات صلة بهذه الصناعة وهلم جرا ، فالإدارة تكليف لا تشريف . أما أخطر ما في العملية الإدارية فهو ما يسمى بـ « الشيزوفرينيا » الإدارية ، أي تسليم الإدارة لشخص غير مؤهل يقتصر دوره على الناحية الإعلامية وبيع المنتجات ، بينما الإدارة الحقيقية في يد أشخاص آخرين . ان مثل هذا الوضع يقلل من فعالية العملية الإدارية .

■ **نعرف أن جامعتكم تخرج أعدادا كبيرة من المهندسين في تخصصات مختلفة ، فهل لك أن تحدثنا عن صلة الجامعة بخريجيها ، وكيفية توثيق الروابط بينها وبين الخريجين .**

أعتقد أن جامعة البترول والمعادن هي أول جامعة عربية تنشىء مكتبا للخريجين ، مهمته متابعة تطور الخريج في العمل الموكول إليه ، ومساعدته بشتى الوسائل للتقدم عن طريق تزويده بأية معلومات ينشدها ، واحاطته بكل ما يتم في رحاب الجامعة أولا بأول ، ودعوته لزيارة الجامعة من وقت إلى آخر وفي المناسبات العامة ، وتنظيم حلقات دراسية للخريجين . أضف إلى ذلك أن المكتب يعمل على ابقاء الصلات بين الخريجين وأساتذتهم وزملائهم حية ، وذلك عبر مجلة الخريجين التي تنشر أخبار الجامعة والخريجين وكل ما له صلة بنشاطات الجامعة .

■ **حقق تعليم الفتاة السعودية تقدما كبيرا في الآونة الأخيرة تعكسه الاحصاءات وخطط التنمية ، فهل هناك نية لتسهيل التحاق الطالبة السعودية بجامعة البترول والمعادن لإتاحة الفرصة لها لخوض ميادين الهندسة والتكنولوجيا ؟**

مما لاشك فيه أن الدولة تراعي عوامل كثيرة وهي تجتاز مرحلة تنموية واسعة النطاق ، من بينها محاولة تلبية متطلبات خطط التنمية من الموارد البشرية المؤهلة في حدود أحكام شريعتنا السمحة ، وأنا شخصيا لا أعتقد أن هناك ما يمنع الطالبة من الالتحاق في المجالات الهندسية والتقنية . وهناك الكثير من الأدوار الهندسية والتقنية التي تتطلب العقل أكثر مما تتطلب العضلات ، وبامكان الفتاة القيام بهذه الأدوار ، شريطة ألا يتعارض ذلك مع تعاليم ديننا وتقاليدنا الطيبة . فقد تكون هناك مهندسة معمارية من الطراز الأول ، تستطيع أن تقضي وقتا طويلا أمام مرسمها ، لابتكار أشكال وتصاميم هندسية رائعة لمؤسسات ومبان ، وما شابه ذلك ، دون الاختلاط بالرجال وعلى نحو لا يتنافى مع الشريعة الإسلامية السمحة ، أما الآن فليس لدينا خطة لقبول الطالبات في جامعة البترول والمعادن ، وقد يتم هذا مستقبلا .

■ **لاشك أن لجامعة البترول والمعادن صلات بمؤسسات علمية وتقنية وجامعات علمية مماثلة ، بودنا لو تحدثنا عن طبيعة هذه الصلات ومدى الاستفادة منها .**

للجامعة صلات علمية واسعة مع جامعات ومراكز بحوث عالمية في أمريكا وأوروبا واليابان والبرازيل وكوريا وغيرها . ومما يؤسف له أن صلاتنا في بادىء الأمر مرت بتجربة لم تكن مجدية ، حيث أن العديد من هذه الجامعات ومراكز البحوث كانت تنظر إلى المملكة وإلى المؤسسات العلمية فيها نظرة تجارية ، هادفة من وراء إقامة صلات معها إلى الحصول إما على تبرعات أو بيع خدمات لها . ان مثل هذه الصلات التجارية البحتة لم تعد تخدم أهدافنا . أما اليوم فان الصلات التي نطمح إلى اقامتها مع هذه المؤسسات العلمية والتقنية فستبنى على المنفعة المتبادلة . وطبيعي أننا لا نستطيع اقامة مثل هذه الصلات إلا بعد أن نصل إلى مرحلة العطاء العلمي والتقني . ويمكن القول أننا بدأنا نسير على الطريق السوي من هذه الناحية ، ودليل ذلك أن عددا من المؤسسات العلمية في أنحاء العالم أخذ يسعى إلى اقامة صلات مع جامعة البترول والمعادن على أساس علمي وتقني وبدون أي عائد اقتصادي عليها ، بل ان هناك مؤسسات علمية تربطنا بها صلات علمية متبادلة تتكبد بسببها تكاليف تفوق ما تتكبده جامعتنا . فعلى سبيل المثال لا الحصر ، أوفد حاكم « سان باولو » مستشاره العلمي منذ فترة وجيزة لإقامة تعاون علمي بين جامعة البترول والمعادن وجميع مراكز البحوث والجامعات في ولاية « سان باولو » بالبرازيل ، مبني على أساس التبادل العلمي والتقني الذي يستفيد منه الجانبان ، على أن يتحمل كل جانب ما يترتب عليه من تكاليف . ولدينا حاليا صلات من هذا النوع مع جامعات أمريكية عديدة ومراكز بحوث كمركز « باتيل » في ولاية أوهايو و « مركز البحوث في ستانفورد Stanford Research Institute » ، ومعهد البترول الفرنسي ، وجمعية العلماء اليابانيين ، ومعاهد البحوث العلمية في كوريا ، هذا فضلا عن صلات تعاقدية مع بعض الجامعات في الولايات المتحدة الأمريكية ، وفرنسا ، وألمانيا ، والنمسا .

■ ان تنمية طاقات الطالب العقلية والاجتماعية ليصبح عضوا فاعلا في المجتمع لابد وأن تحظى بالاهتمام الوافر من لدن الهيئة الإدارية والتدريسية في الجامعة . فما الذي تهيئه إدارة الجامعة للطالب فيما يتعلق بتوفير مناخ جامعي متكامل يساعده على التحصيل العلمي في جو مريح وبصورة طبيعية مرضية ؟

قمنا في الجامعة بتطبيق فكرة اليوم التعليمي الكامل ، وبهذا تكون جامعة البترول والمعادن رائدة في هذا الميدان في العالم العربي . وتقوم هذه الفكرة على مبدأ تربوي أساسي قوامه أن عملية التعليم لا تتم في المعامل والفصول فحسب ، وانما تمتد إلى جميع أشكال الاتصال الانساني والمعيشة اليومية . فالغالبية العظمى من الطلاب الذين يعيشون في الحرم الجامعي يمارسون هوايات وأنشطة مصممة من قبل مختصين في الجامعة ، ويقوم بادارتها الطلاب بأنفسهم . وهناك نواد علمية وفنية ورياضية كثيرة يلتحق بها الطالب وفقاً لميوله . أضف إلى ذلك اشراك الطلاب في المحاضرات العامة والنشاطات المتنوعة التي تهييء الفرصة للطالب الجاد لتطوير مهاراته وتعلم ما يساعده في حياته .

■ هل ترى أننا كأمة عربية اسلامية لها ماض مجيد ، قادرون على اللحاق بركب التقدم العلمي والتقني أسوة بالأمم الصناعية المتقدمة ؟

أولا أن الأمة العربية الإسلامية ليست متخلفة كما يدعي البعض ، فنحن متقدمون في النواحي العقيدية والروحية والاجتماعية ، وأنا لا أقول هذا من قبيل التبجح ، فهو حقيقة واقعة ملموسة . فهناك مؤشرات كثيرة تؤيد ذلك ، وعلى سبيل المثال يمكن النظر في بعض المؤشرات الاجتماعية مثل نسبة الطلاق ، والجريمة ، والانتحار ، وما إلى ذلك في المجتمعات الغربية والشرقية ، وسترى منها أن هذه النسب أقل بكثير في المجتمعات الإسلامية ، مما يدل على فشل ذريع في مواجهة الحياة في الدول الصناعية . فنحن إذن أكثر تقدما من هذه المجتمعات إذا ما أخذ العامل الروحي والاجتماعي في الاعتبار . فالمجتمع الإسلامي في إطار الدين الإسلامي هو مجتمع غير متخلف . نحن متخلفون فقط في انتاج البضائع والخدمات وفي انتاج أدوات التقنية الحديثة كالطائرات والسيارات وما شابه ذلك ، وتخلفنا هذا ليس موروثا وإنما هو تخلف مؤقت . والانتكاسة الكبرى للأمة العربية الإسلامية حدثت في السنوات الخمسين الماضية . فمراكز الصناعة العالمية حتى قبل اختراع آلة الاحتراق الداخلي كانت في العالم الإسلامي ، في دمشق ، واستانبول ، والهند ، ومصر ، والأندلس . فأحسن أنواع الصلب في العالم كان ينتج في دمشق حتى ما قبل الانقلاب الصناعي الحديث ، وكان يعرف بالصلب الدمشقي . فالتخلف الذي نعانيه حاليا هو تخلف مؤقت لا يزول إلا بزوال أسبابه .



■ حدثنا عن نشاطك الفكري وإسهامك في الحركة الفكرية .

اعتبر نفسي مقصرا من ناحية التأليف ، وقد سبق لي أن نشرت مقالات وبحوثا علمية في مجلات عربية وأجنبية منها مجلة « قافلة الزيت » عن تصوري للتقنية في الوقت الحاضر . ولدي الآن كتابان تحت الطبع ، أحدهما يتعلق بمدارس الفكر الإداري وامكانية تبنيها في البيئات المختلفة ، والآخر حول علاقة المدارس العالمية الإدارية بعملية التنمية الاقتصادية . أما بالنسبة إلى مطالعاتي فقد بدأت في السنوات الخمس الأخيرة أرفض كثيرا من الفكر الاجتماعي والفلسفي الغربي والشرقي ، وتوجهت توجها شبه تام إلى الاهتمام بالتراث الإسلامي والعربي والعلمي .. ووجدت أن هذا التراث غني ومتقدم جداً على العصر الذي نعيش فيه . ومن حسن الحظ أن معظم هذا التراث محفوظ ومنشور ، وباستطاعة كل فرد أن يصل إليه . وأعتقد أنه من الواجب على كل مثقف عربي أن يعود إلى هذا التراث فيقرأ مثلا « مقدمة ابن خلدون » ليكتشف أن ابن خلدون قد وضع أسس علم الاجتماع وأسس المدرسة الحديثة لتناول علم التاريخ ولنقرأ تراث الأدريسي في الجغرافية ، فالخرائط التي رسمها تبين أن العرب المسلمين في العصور الوسطى قد عرفوا العالم وحددوه ورسموا خرائط جغرافية له .

ان توجهي إلى التراث الإسلامي الرفيع لا يمنعني من متابعة الحركة الفكرية في عالمنا العربي . فأنا أقرأ للشاعر الفحل المعاصر محمد حسن فقي ذي العطاء الوافر والأسلوب الجزيل لولا رنة الحزن التي تشوب بعض شعره . كما أنني حاليا أقرأ كتابا باللغة الانكليزية لادوارد سعيد وعنوانه «المستشرقون — The Orientalists» وكتابا عنوانه « اتجاهات الإدارة الحديثة » . هذا بالإضافة إلى أنني أقرأ المؤلفات التي يؤلفها زملائي في الجامعة .. وحاليا أعيد قراءة كتاب « الأمم في الفقه الشافعي » وكتاب « البحر الرائق في الفقه الحنفي » وهما مثل على أن التشريع الإسلامي متسع جدا ، وأن الأحكام التي أنزلها الله في القرآن وأرشدنا إليها الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، في المعاملات وشئون الحياة قابلة للتطور باستمرار وقابلة للتفسير الملائم لمختلف الحالات والعصور □

الفراشات

بقلم : د. عيسى المصو / نيويورك



تتأرجح أعداد الفراشات من سنة إلى أخرى ، وتتخلل هذه السنين فترات متناوبة من الزيادة النسبية والندرة . وتعتمد الفراشات أكثر من معظم الحشرات الأخرى على ضوء الشمس للبقاء على قيد الحياة . وإذا تصادف انتشار طقس سيء مع فترة طيران الفراشات ، وهي فترة قصيرة ، تتعرض أعدادها إلى تأثير مريع ربما استغرق تعويضها مدة طويلة .

ومن الأخطار الأخرى التي تتعرض لها الفراشات ، الصقيع في أواخر فصل الربيع ، فهي تغط في سباتها ، إما وهي في مرحلة التبييض ، أو في مرحلة اليرقة الصغيرة ، ومادامت مستغرقة في سباتها فهي تستطيع مقاومة البرد إلى درجة معقولة ، ولكنها عندما تبدأ في التغذية تصبح أشد عرضة للإصابة بالضرر . ويحدث أحيانا أن أوراق الشجر الصغيرة التي تقتات عليها اليرقة يتلفها الصقيع ، فعندئذ تتعرض الفراشات في موقع معين إلى الإبادة في فصل واحد .

هناك عوامل كثيرة تؤثر تأثيرا كبيرا على أعداد الفراشات في أمكنة معينة ، ومن هذه العوامل مد شبكات مصارف المياه ، وبناء خزانات المياه . وقطع أشجار الغابات وزراعة مناطق كبيرة من الأشجار الصنوبرية . وحراثة أراضي التلال المكسوة بالأعشاب . وتتعرض المجموعات الصغيرة منها إلى الإبادة عن طريق التطوير المحلي الناتج عن أعمال البناء أو شق الطرق .

وتقاسي أنواع الفراشات الأكثر حساسية للتغييرات البسيطة الجارية في بيئتها أكثر مما تقاسيه الأنواع الأكثر تأقلما . أما أكبر خطر يهدد بقاء أي نوع من أنواع الفراشات فهو تطابق الفترة الطبيعية التي يقل فيها عدده مع مناخ غير ملائم أو مع تغييرات في البيئة ، مما يجعل من المستحيل على النوع أن يزيد من أعداده مرة أخرى .

تتناول يرقة الفراشات أطعمة متباينة محدودة جداً ، فأكثرها لا يقتات إلا على نوع واحد من النبات أو العشب . بينما لا تقتات أنواع أخرى سوى على نوعين أو ثلاثة أنواع من الفصيلة النباتية نفسها . وتقوم الفراشة – مع بعض الاستثناءات القليلة – بوضع بيضها بالفعل على النبات الذي يتلاءم أكثر من غيره لسد حاجات اليرقة . وهي تستطيع اختيار النبات الملائم من بين عدد كبير من النباتات بوساطة الذوق أو الشم على الأرجح . وتدلنا الملاحظة الدقيقة للفراشات التي تفقس على النبات الملائم على أنها تختبر أوراق النبات بطرقها بقدميها الأماميتين . ومن خلال عملية الطرق هذه التي يرجح أنها تستخرج بوساطتها بعض الروائح من سطح الورقة ، تستطيع الفراشات أن تحكم فيما إذا كان النبات الذي استقرت عليه ملائما . فإذا كان الأمر كذلك ، فإن استجابة الأنثى الملقحة التي نضج بيضها هي الاستقرار لحظة ومن ثم إلصاق بيضة على سطح النبات ، وأحيانا فوق ورقة الشجرة أو في أسفلها وأحيانا على ساق زهرة ، أو على غصن في أسفل أحد أكمام الزهور .

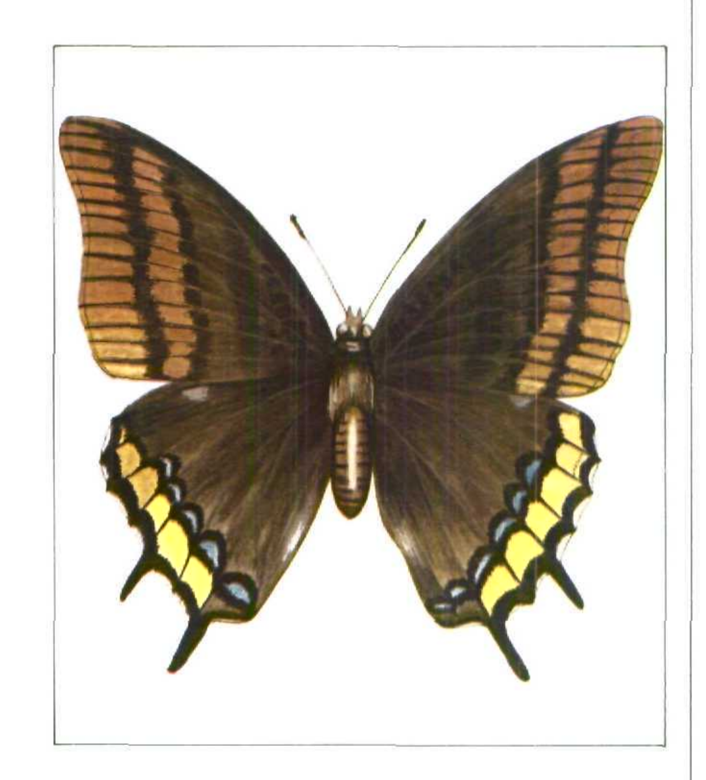
تضع معظم الفراشات بيضها كل واحدة على حدة متنقلة من نبتة إلى أخرى ، متوقفة أحيانا لتقتات على الزهور ، ومن ثم تضع عددا آخر قليلا من البيض . ويستغرق وضع البيض في الأنواع القصيرة العمر أياما قليلة ، إلا أن الأنواع الأطول عمرا قد يطول وضعها عدة أسابيع ، ويأخذ البيض في النضج تدريجيا . ان وضع البيض على هذا الشكل المتباعد زمانا ومكانا ، يضمن ألا تتقارب اليرقات إذ أن الكثير منها يأكل بعضها بعضا خصوصا في المراحل المبكرة ، فيتجنب احداث وفيات غير ضرورية فيما بينها .

تعيش اليرقات في بداية الأمر في نسيج حريري جماعي يهجر فيما بعد فتفترق الأسر ، ويتجول الأفراد لكي يستطيعوا إطعام أنفسهم بأنفسهم . وهكذا لا تقتات الفراشات بعضها على بعض . ويتوفر الطعام بكثرة في العادة ، ذلك أن النباتات المختارة هي من النوع الذي ينمو في مجموعات كبيرة .



ان معظم الفراشات تحتاج إلى حافز الاهتداء إلى النبات الملائم لوضع البيض فيه ، فإذا تعذر ذلك فقد تموت الأنثى قبل أن تضع بيضها ، إلا أن أنواعا أخرى منها قد تلقي البيض بطريقة عشوائية لدى طيرانها ، وتضع أنواع أخرى بيضها في شقوق جذوع الأشجار أو على أية مادة خشنة لأنها لا تحتاج إلى حافز قوي كأوراق البنفسج وهو النبات العادي الذي تقتات عليه الفراشات .

ومن الطريف أنه لدى دراسة بيض الفراشات تحت العدسة المكبرة ، يلاحظ أنها في العادة محفورة السطح بشكل دقيق جداً . ويتخذ الحفر شكل تلال تمتد من أعلاها إلى أسفلها ، وفي منتصف رأس كل بيضة فتحة دقيقة ، وعبر هذه الفتحة يلقح البيض ، كما تسمح للأكسجين بالدخول إلى الجنين المتطور . ومعظم بيض الفراشات شديد الاصفرار لدى وضعه ، والكثير منها يميل إلى الاسمرار بشكل كبير في غضون يومين ، وبذلك فانها تصبح أقل لفتا للأنظار ، وقبل التفقيس بوقت قصير يشتد اسمرارها . وتستطاع رؤية اليرقة التي لم تولد بعد من خلال قشرة البيض والنصف الشفافة .



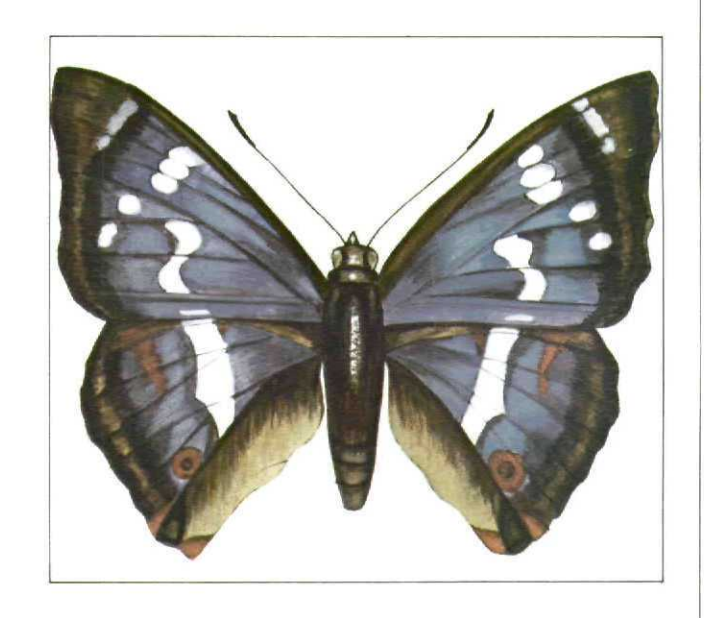
ان الوقت الذي يمضي بين الوضع والتفقيس يختلف كثيرا باختلاف الفصيلة ، وربما يستغرق ذلك أكثر من أسبوع في منتصف الصيف إذا كان الطقس معتدلا ، أو عدة أشهر إذا وضع البيض في آخر الفصل ولا تفقس إلا في الربيع الذي يليه . وتأكل يرقات الفراشات دائما قسما على الأقل من قشور بيضهـــا قبل أن تشرع في الاقتيات على النبات ، وهذا يكفيها لمدة طويلة .

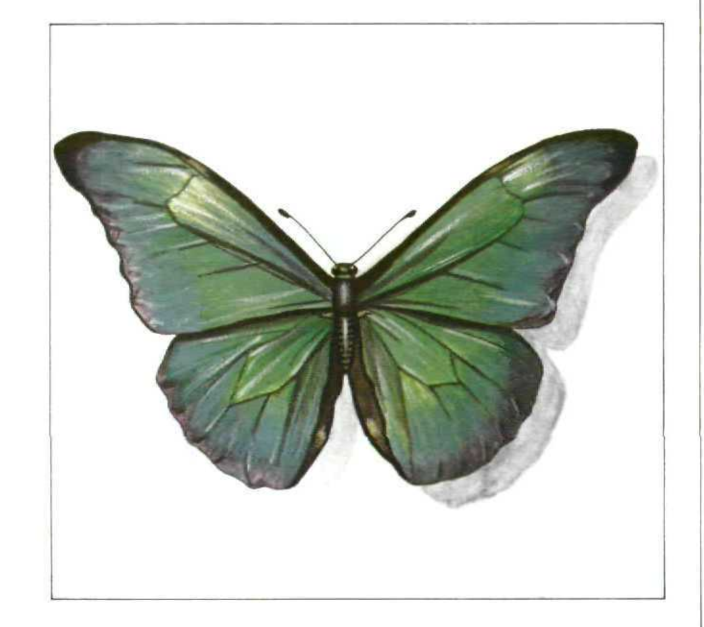
ان جميع يرقات الفراشات التي تقتات بنفسها تخفي شكلها ولونها بحيث لا يمكن أن تكتشفها إلا العين المدربة . أما تلك التي تعيش في أسراب من الناحية الأخرى ، فمن السهل رؤيتها خصوصا عندما تكون صغيرة ، ولكنها تعتمد في حماية نفسها على كونها كريهة الطعم بالنسبة إلى العصافير ، وفي كونها مسلحة بشوك يجعل ابتلاعها أمرا صعبا . إلا أن شكلها الخارجي لا يكون على كل حال دفاعا عنها ضد ألد أعدائها وهو الذباب المتطفل وذبابة الشمس التي تفتك بهـــا عادة .

ورغم الافتقار إلى البينة ، فانه من المحتمل أن الطفيليات من هذا النوع تقوم بدور فعال في إحداث تذبذب في أعداد الفراشات . ويعتقد العلماء المختصون بالحشرات الذين درسوا الموضوع بعناية أن الطفيليات هي المسؤولة عن الانقراض المفاجىء للفراشات في مناطق كانت كثافتها فيها كبيرة . ولدى تكاثر أعداد الفراشات في منطقة محددة فان الظروف بالنسبة للطفيليات تتحسن تدريجيا وتتكاثر بحيث لا ينمو من أعداد الفراشات إلا العدد القليل . وبانقراض الفراشات ينقرض عماد حياتها ، وباختفاء اعدائها تتناقص أعداد الطفيليات في الحال وقد تختفي تماماً من المنطقة . ويتيح هذا الوضع الجديد الفرصة للفراشات المتبقية للتكاثر من جديد ، لاسيما إذا ما توفرت الظروف المناسبة ، وهكذا تبدأ الفراشات في التكاثر مرة أخرى بشكل متواصل إلى أن تتكرر العمليـــة مرة أخرى بعد عدة سنوات .

ان التغيير التام الذي يحدث لدى تحول اليرقة إلى طورها التالي هو من أسرار الحكمة الإلهية . فقبل التغير الفعلي ببضعة أيام ، تبدأ اليرقة في الاستعداد لهذا الحدث فتتوقف عن الطعام ، ويتقلص حجمها بصورة مرئية ومن ثم تمضي في العادة في الصاق نفسها باحكام على ورقة أو ساق شجرة وغيرها . وقد يمضي يومان قبل حدوث أي تغيير مرئي وبعد ذلك ينشق جلد اليرقة خلف الرأس وتدريجيا تصبح حشرة وتلقي بجلدها القديم خلفها متخلصة منه نهائيا .

وعندما تستطيع الفراشة الطيران يصبح الطعام أول مطلب لها . ونظرا لكون ألسنتها أنبوبية الشكل فانها لا تستطيع أن تقتات إلا على السوائل ، ويكون رحيق الزهور طعامها الرئيسي . وتشرب الماء وتمتص السوائل من الفواكه العفنة والسائل الذي تنضح به الأشجار ، وتقتات بعض الأنواع على الجيف . وتعثر الفراشات على الزهور التي تقتات عليها بالنظر ، وربما ساعدها أحيانا في ذلك الشم كما يحدث عند حطها على بعض الأشجار التي يفوح منها الرحيق . ومن الواضح أنها تستطيع التمييز





بين الألوان ولها ميل إلى الورود البنفسجية الزاهية والأرجوانية ويجيء بعد ذلك اللون البنفسجي واللون القرنفلي ، إلا أنها تميل إلى اغفال اللون الأبيض إذا توفرت ألوان أخرى .

تكون أنثى الفراشات غالبا مهيأة للقاح بعد انبثاقها ولكن مما هو مألوف أن تضطر ذكور الفراشات أن تطير بضعة أيام وتتغذى قبل أن تهتم باللقاح . وفي معظم أنواع الفراشات يسبق انبثاق الذكور الأناث ببضعة أيام كما تفيق من سباتها في وقت أبكر . وعندما يطير الجنسان ويكون الطقس مواتيا ، تبدأ عملية التودد . أما اللقاح فلا يحدث أثناء الطيران ، ولكن الأزواج تستقر معا على نبات معين غالبا ما يكون مختفيا وراء ورقة شجر أو على الجانب السفلي من أحد الأغصان .

كثيرا ما يشار إلى أن حياة الفراشات مثال على القصر ، ولكن إذا ما اتيحت الظروف المناسبة فحتى أكثر الأنواع رقة وأقصرها عمرا يمكنها أن تعمر عشرة أيام أو أربعة عشر يوما إذا ما توفر لها الطعام والطقس المناسب . وتعمّر بعض الأنواع عشرة أشهر وتستمر في الطيران بعد سباتها إلى أن تتمزق أجنحتها وتضمحل . وتستطيع بعض فصائلها الطيران مسافات طويلة تجتاز فيها قارة بأكملها .

ان الألوان البراقة التي تجعل من الفراشات حشرات جذابة تساعدها أيضاً على العثور والتعرف إلى بعضها البعض . وفي الغالب تكون الألوان في الجانب السفلي أقل بريقا ، ويستطيع معظمها الاختفاء عند الاستقرار وضم أجنحتها . ولدى طيرانها تصبح فريسة سهلة للطيور ولكنها عندما تستقر تكون في مأمن معقول من الهجوم . ان هدف البقع الشبيهة بالعيون التي غالبا ما تزين أجنحتها هو صرف انتباه الأعداء عن الأجزاء الأخرى الحيوية في الجسم . فلدى انقضاض طائر على فراشة يضرب هذه الأعين الكاذبة ، ويكون نتيجة ذلك تمزيق قطعة من جناح الفراشة غير الحساس ، مما يضطرها في معظم الأحيان إلى الهرب والبقـاء حية لتتوالد وتتكاثر □

طب الأطفال عند ابن القيم

بقلم: الدكتور محمود الحاج قاسم محمد / الموصل

لم يكن ابن القيم طبيبا « متفرغا » وممارسا للطب . وعلى الرغم من ذلك فاننا نجد له أبحاثا قيمة في الطب . كوصف أجزاء جسم الانسان . وافاضته في وصف التنفس والجهاز الهضمي والاسنان . وبذلك كان أول من أشار إلى وظائف الغدد الصماء . كما تناول الكثير من أحوال النفس وسبق الكثير من المحدثين أمثال «فرويد» في نظريات تحليل العواطف بما يتفق مع الأخلاق والإيمان العميق بالله . وله آراء قيمة في الطب الوقائي والصحة العامة وضرورة ثقة المريض بالطبيب وكثير غير ذلك .

وقد جمع ودرس الأحاديث النبوية الشريفة التي وردت في الطب وهو ما يسمى بـ « الطب النبوي » وفي تدوينه ذلك تأثر بكتابي الحموي والذهبي ، وأضاف ما جادت به عبقريته من الآراء والاستنباطات القيمة .

ويروى عن كثير من الأطباء من أمثال « أبقراط » و « جالينوس » و « ابن ماسويه » و « ابن بختيشوع » و « الرازي » و « ابن سينا » وغيرهم . الأمر الذي يدل على سعة اطلاعه على كتب الأوائل في الطب ودراسته لدقائق هذا العلم مما جعله صاحب ذخيرة وفيرة وملكة عالية في حقل طب الأطفال .

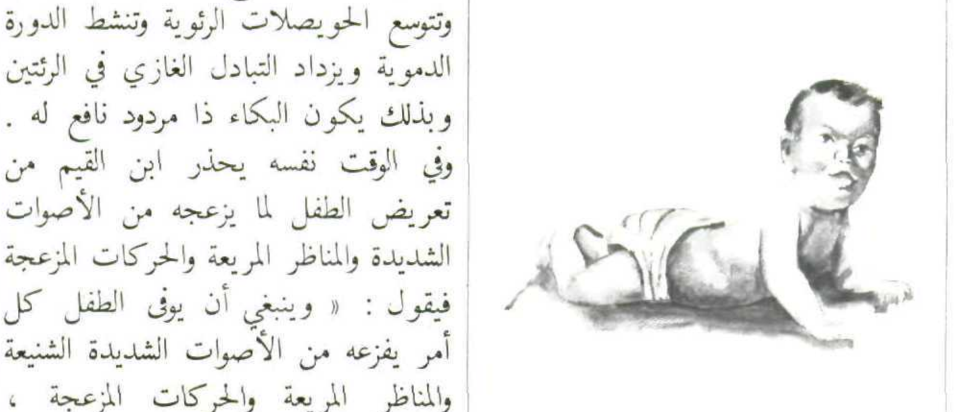
آراؤه في طب الأطفال

سرد ابن القيم آراءه في طب الأطفال في كتابه « تحفة المودود بأحكام المولود » . حيث قسم كتابه هذا إلى سبعة عشر بابا ، ففي الأبواب الخمسة عشر الأولى بحث الناحية الشرعيــة في أحكام المولود . ومن بين الموضوعات التي تناولها ، استحباب طلب الأولاد ، وكراهة تسخط ما وهب الله من البنات ، استحباب بشارة من ولد له ولد ، استحباب الآذان والإقامة في أذنيه ، في العقيقة وأحكامها ، في حلق رأسه ، في ذكر تسميته ووقتها ، في ختان المولود وأحكامه ، في استحباب تقبيل الأطفال ، في وجوب تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم . أما في الباب السابع عشر ، فقد تناول ابن القيم خلاصة لآراء الأطباء في بعض ما يتعلق بطب الأطفال حتى زمانه اضافة لآرائه وما توصل إليه بثاقب بصيرته وفطنته وتجربته في هذا الحقل . والطب الحديث يقره في أغلب ما ذكره والجزء الذي لا يقره عليه لا يشكل مأخذا عليه حيث أن العلم الطبي كغيره من العلوم التجريبية ، دائم التغير والتطور ، فما نحكم عليه اليوم بأنه صحيح قد تثبت التجارب خطأه غدا ، وبعض ما درسناه وكأنه الحقيقة بالأمس في كليات الطب أن تفوه به طالب الطب اليوم فان الفشل يكون مصيره لا محالة . وإذا ما تذكرنا بأن ابن القيم كتب آراءه هذه قبل ستمائة وثلاثين عاما ، أدركنا قيمة تلك الآراء ومكانة صاحبها . وإليك عزيزي القارىء أبرز ما ذكره مما له علاقة بالطفل ، تكونه ، نشأته ، وتربيته .



تكون وتطور الجنين

يتحدث ابن القيم عن مقدار زمان الحمل واختلاف الأجنة في ذلك ، وفي سبب الشبه للأبوين أو أحدهما ، كما يتحدث عن المولودين لسبعة وثمانية وتسعة أشهر وهو في كل ذلك يدعم آراءه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية . ولاشك في أن الحق كان معه في بعض ما ذكر ولم يكن مصيبا في بعض المواضع الأخرى قياسا لما نعرفه اليوم في علم الأجنة الحديث .



بكاء الطفل والعناية به من الناحية النفسية

بعد أن أكد ابن القيم بأن بكاء الطفل ساعة ولادته يدل على صحته وقوته وشدته ، يقول : « وإذا وضع الطفل يده وابهامه واصبعه على عضو من أعضائه فهو دليل على ألم في ذلك العضو » . وهذا ما نطبقه اليوم نحن أطباء الأطفال ، فاننا كثيرا ما نسأل الأمهات عند فحص الطفل ما إذا كانت تشاهده يمد يده كثيرا إلى أذنه ، فإن كان الجواب نعم كان ذلك عونا لنا في تشخيص التهاب الأذن الوسطى .

ثم نجد ابن القيم يهدىء من روع الأبوين إذا بكى طفلهما بقوله : « ولا ينبغي أن يشق على الأبوين بكاء الطفل وصراخه ، ولاسيما لشربه اللبن إذا جاع ، فانه ينتفع بذلك البكاء انتفاعا عظيما ، وبذلك يروض أعضاءه ... ويفسح صدره ويسخن دماغه ... » وهذا صحيح علميا حيث أننا إذا ما نفينا العامل المرضي بالفحص الطبي سوف لن يكون هناك داع للقلق من بكاء الطفل ، إذ أنه بفعل الشهيق والزفير العميقين وبتأثير الضغط والاحتقان المرافق لعملية البكاء يتسع القفص الصدري وتتوسع الحويصلات الرئوية وتنشط الدورة الدموية ويزداد التبادل الغازي في الرئتين وبذلك يكون البكاء ذا مردود نافع له . وفي الوقت نفسه يحذر ابن القيم من تعريض الطفل لما يزعجه من الأصوات الشديدة والمناظر المريعة والحركات المزعجة فيقول : « وينبغي أن يوقى الطفل كل أمر يفزعه من الأصوات الشديدة الشنيعة والمناظر المريعة والحركات المزعجة ، فإن ذلك ربما أدى إلى فساد قوته العاقلة لضعفها فلا ينتفع بها بعد كبره » . وهذا الرأي يؤيده فيه علماء التربية وعلم النفس حيث أنه كثيرا ما تفسر مشاكل نفسية لدى الكبار بما يتعرضون له في مرحلة الطفولة من مشاكل سجلها عقلهم الباطن وانعكست بسوء على حياتهم كلها . كما ويحذر أيضاً من منع الطفل من القيام ببعض المتطلبات الضرورية له حفظا على نمو قدراته النفسية بانتظام وتجنبيا له من الكبت فيقول : « وأحذر كل الحذر أن تحبس عنه ما يحتاج إليه من نوم أو طعام أو شراب أو عطاس أو بول .. فان لحبس ذلك عواقب رديئة في حق الطفل الكبير » .

تغذية الطفل وفطامه

تناول ابن القيم هنا أوقات الرضاعة ونوعية الغذاء وكيفية تعويد الطفل على الطعام وكيفية فطامه ، ومما قاله بهذا الصدد : « ينبغي أن يكون رضاع المولود من غير أمه بعد وضعه يومين أو ثلاثة وهو الأجود ، لما في لبنها ذلك الوقت من الغلظ والاخلاط بخلاف لبن من استقلت على الرضاع » . نحن لا نتفق مع ابن القيم فيما ذهب إليه حيث أن حليب الأم في هذه الفترة



لا يخلو من فائدة غذائية للطفل لاحتوائه على بعض عناصر المناعة ضد الأمراض ، إلا أن هناك من يؤيده فيما ذهب إليه حماية للطفل من اليرقان الولادي وذلك لاحتواء حليب الأم في الأيام الأولى على كميات مكثفة من الهرمونات الأنثوية التي قد تكون سببا في ازدياد انحلال كريات الدم الحمراء وترسب البيليروبين في الأنسجة وازدياد اليرقان الفسلجي الذي يتعرض له بعض الأطفال . ثم يقول : « وينبغي أن يقتصر بهم على اللبن وحده إلى نبات أسنانهم .. فإذا نبتت أسنانه قويت معدته وتغذى بالطعام .. وينبغي تدريجهم في الغذاء ، فأول ما يطعمونهم

اللبن ، فيطعمهونهم الخبز المنقوع في الماء الحار ، واللبن الحليب ثم بعد ذلك الطبخ ، والأمراق الخالية من اللحم ، ثم بعد ذلك ما لطف جدا من اللحم » . وهذا لاشك قول حسن حيث أن التدرج في تعليم الطفل على الأغذية هو ما نوصي به طبيا اليوم ولم نضف إلى ذلك سوى تحديد موعد اعطاء كل نوع من الغذاء .

وقوله في فطام الطفل قول علمي وصحيح ، فهو يؤكد على ضرورة فطام الطفل بالتدريج وليس دفعة واحدة وبهذا يقول : « وينبغي للمرضع إذا



أرادت فطامه أن تفطمه على التدريج ولا تفاجئه بالفطـام وهلة واحدة ، بل تعوده أياه وتمرنه عليه لمضرة الانتقال عن الألف والعادة مرة واحدة » .

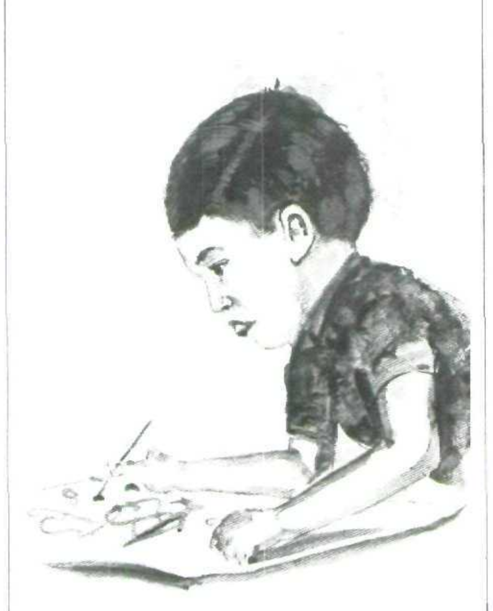
تطور حواس الطفل ومشيه

لم يغفل ابن القيم عن ذكر تطور ونمو حواس الطفل ونشاطه العقلي بل حاول بثاقب بصيرته تتبع ذلك فقال : « فيضحك عند الأربعين ، وذلك أول ما يعقل نفسه ، فإذا أتم له شهران رأى المنامات ثم ينشأ معه التمييز والعقل على التدريج شيئاً فشيئاً إلى سن التمييز وليس له سن معينة بل من الناس من يميز الخمس » .

أما عن مشي الطفل فيقول هذا القول العلمي الصائب : « ومما ينبغي أن يحذر أن يحمل الطفل على المشي قبل وقته لما يعرض في أرجلهم بسبب ذلك من الانتقال والاعوجاج لسبب ضعفها وقبولها لذلك » . ان هذه الحقيقة أثبتتها الأبحاث التربوية الحديثة حيث أكدت وجود ارتباط وثيق بين قيام الطفل بحركات الحبو والقيام والمشي وبين نمو جهازه العصبي ، فعند تكامل الأخير يستطيع الطفل تقليد من حوله سريعا « إن لم يكن مصابا بمرض يمنع ذلك كالكساح أو الشلل مثلا » . ولو لم يكن قد سبق له أن حبا أو انتصب هذا اضافة لما قد يصيبه فيما إذا أرغم على الوقوف والتحرك قبل أن يكون جسمه قد استعد لذلك .

تربية الطفل الخلقية والمهنية

ان ابن القيم شأنه شأن الفقهاء والفلاسفة العرب والمسلمين قاطبة اشترط تعويد الطفل أحسن العادات وأكرم الأخلاق وأجمل النظم ، وأكد على القدوة الحسنة من المربي وحسن اختيار جماعة الأصدقاء . فمن وصاياه في هذا الصدد : « ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خلقه فانه ينشأ على ما عوده المربي من صغره .. وكذلك يجب أن يجتنب الصبي إذا عقل مجالس اللهو والغناء وسماع الفحش والبدع ومنطق السوء فانه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكبر .. وينبغي لوليه أن يجنبه الأخذ من غيره .. ويعوده البذل والاعطاء .. ويجنبه الكسل والبطالة والدعة والراحة .. والحذر كل الحذر من تمكينه



من تناول ما يزيل عقله من مسكر وغيره ... » .

لقد نادى ابن القيم بمبدأ التخصص بعد الدراسة الثقافية الروحية في بدء حياة الطفل وهو ما ينصح به علماء التربية اليوم عند اختيار الدراسة المهنية للشباب ، فيجب أن نفكر فيما يناسب طبع المتعلم وما يلائمه وما يميل إليه كي ينبغ في دراسته ، ولنضع كل شاب في المكان المناسب له . يقول في ذلك : « ومما ينبغي أن يعتمد حال الصبي وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها .. فإن رآه حسن الفهم صحيح الإدراك جيد الحفظ واعيا ، فهذه من علامات قبوله وتهيئه للعلم .. وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه وهو مستعد للفروسية وأسبابها من الركوب والرمي واللعب بالرمح .. منه من أسباب الفروسية والتمرن عليها .. وإن رآه بخلاف ذلك .. ورأى عينه منفتحة إلى صنعة من الصنائع . وهي صنـاعة مباحة نافعـة فليمكنه منها .. » □

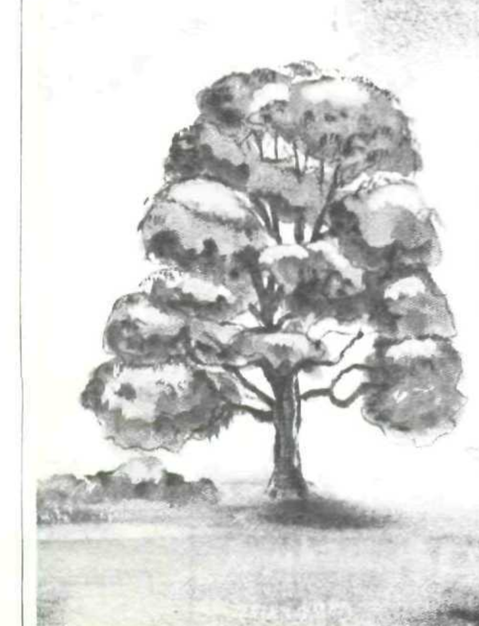
الشجرة المباركة

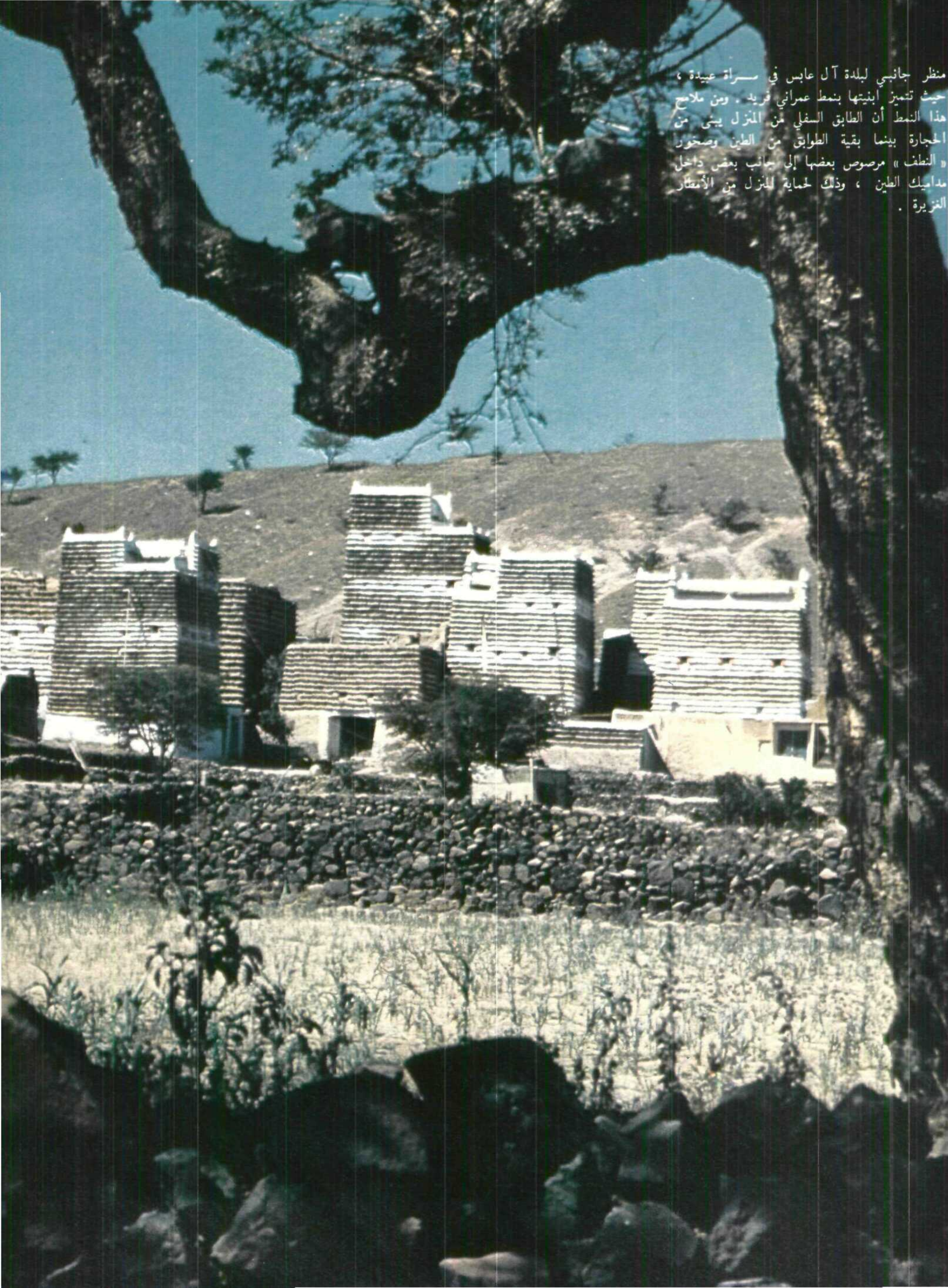
شعر : ماجد ابراهيم العامري / المدينة المنورة

أليـل الشـك أم صبح اليقـين ؟ ولفـح الهجر أم همس الغصـون ؟
وبيـداء تمخّض .. عن هجـير تظـل الشمس .. تشرب من عيـوني
أم الروض الأريض .. يفيض حسناً ويغمـر ظله .. سجف الجفـون . !
وجنـات يحـار الطرف فيهـا وتزخـر بالفنـون .. وبالفتـون !
يقيـل المرء .. فيهـا بعض وقـت فيقـذف بالشقـاء .. وبالشجـون
بعيـدا عن .. رنين المـال .. يطغـي إذا لم يـأت من تعب اليمـين
أصيخـوا لي .. فـان الرأي رأيـي عـدلت إلى الحفيف .. عن الرنـين
وأمضيت الحيـاة .. بقرب حقـل أمهّـر .. في السهول – وفي الحـزون
وأغرسـه بمـا ينمـي ويغـني ويحمي الوجـه .. من ضنـك السنين
أودّع تربـه .. حبـات قلبي وأسـقي نبتـه .. عرق الجبـين !
وأقطف مـا غرست بفضـل جهـدي ولا أمتـار .. من غرس الضنـين

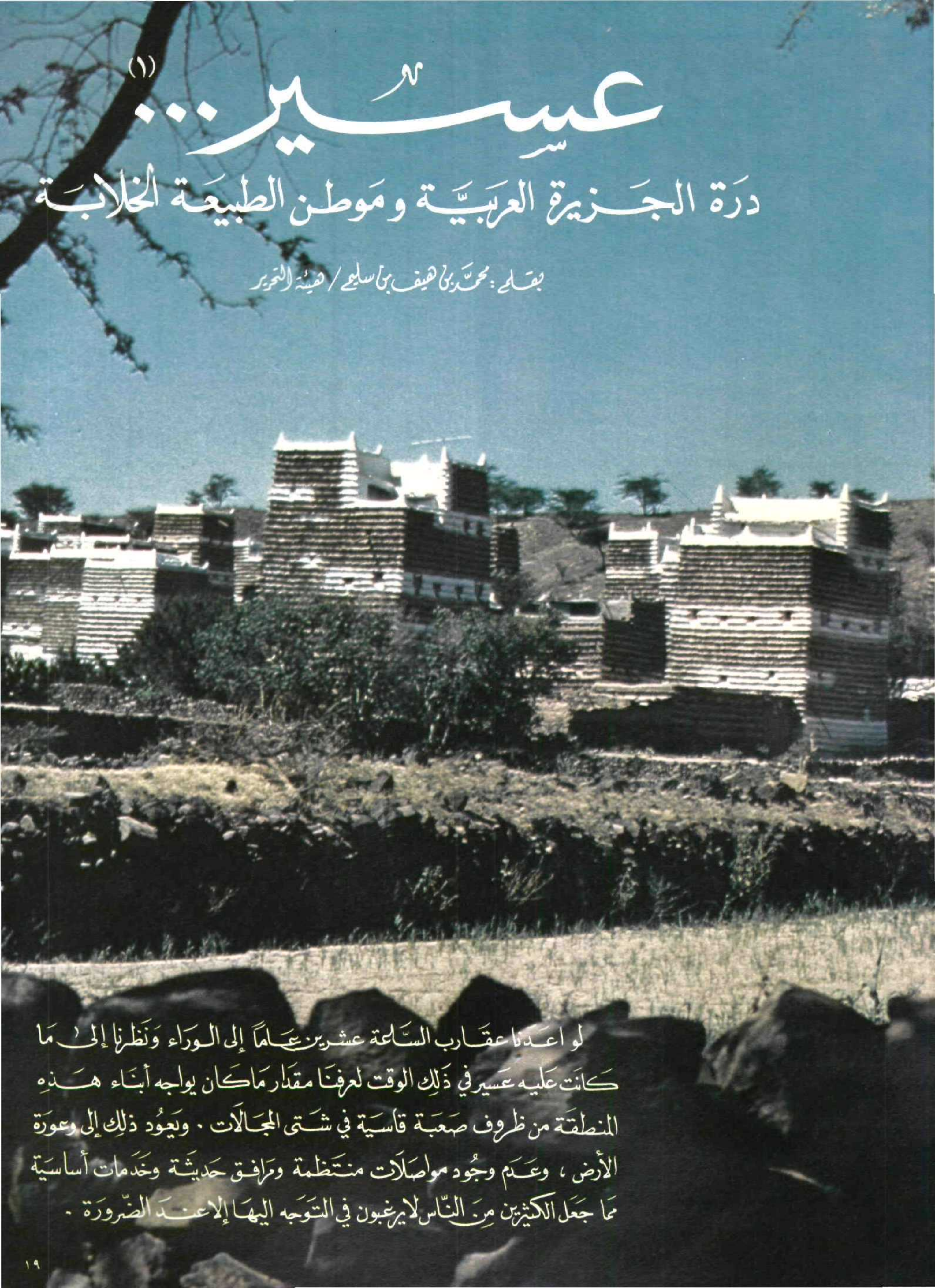
* * *

أسـوّره .. بسـور من نخيـل يصـد الريـح .. يبعث بالدجـون
يمـد البيت .. مـاعونـا وفرشـا ويغـذو الأهـل .. كالعنس اللبـون
أراعـي شـأنه وأذب عنـه وأحفظـه .. كما الحـرز الثمـين
فـان كرائمـا بسقت ونـافت وجـادت .. بالعطـاء المستبين
حـري .. ان نوفيهـا حقوقـا ونكرمهـا .. كاكرام .. البنـين
لهـا في كوننـا شـأن عظيم وقربـى .. لا تغـلف بالظنـون
تـكاد .. إذا يحـين القطف منهـا تمـد حبـالها .. للقـاطفين
تحس كما يحس .. بنـو أخيهـا وتزخـر .. بالمحبـة .. والحنين
ويؤلمهـا .. عقـوق الرحم منـا فتجهش .. بالتحسر .. والأنـين
أصيخـوا لي .. فـان اليـوم جهد ووقت .. للعطـاء .. بـلا ركون
فهيّـا ... نمـلأ الدنيـا ربيعـاً ونسمع أهلهـا .. أحـلى اللحون !!





منظر جانبي لبلدة آل عابس في سـراة عبيدة ، حيث تتميز ابنيتها بنمط عمراني فريد . ومن ملامح هذا النمط أن الطابق السفلي من المنزل يبنى من الحجارة بينما بقية الطوابق من الطين وصخور « النطف » مرصوص بعضها إلى جانب بعض داخل مداميك الطين ، وذلك لحماية المنزل من الأمطار الغزيرة .

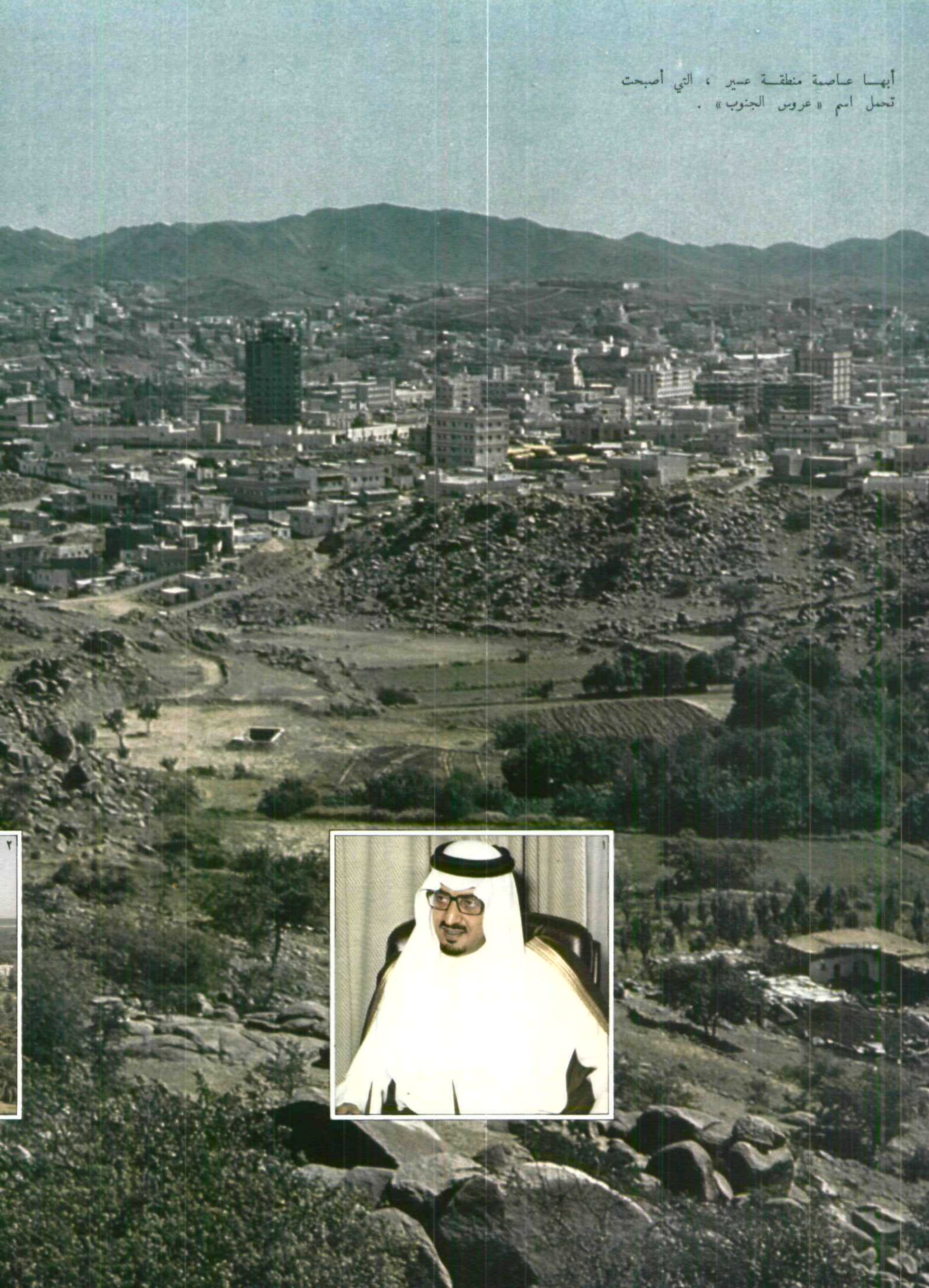


عسير ... (١)

درة الجزيرة العربيّة وموطن الطبيعة الخلابة

بقلم: محمّد بن هيف بن سليم / هيئة التحرير

لو اعدنا عقارب السّاعة عشرين عاماً إلى الوراء ونظرنا إلى ما كانت عليه عسير في ذلك الوقت لعرفنا مقدار ماكان يواجه أبناء هذه المنطقة من ظروف صعبة قاسية في شتى المجالات . ويعود ذلك إلى وعورة الأرض ، وعدم وجود مواصلات منتظمة ومرافق حديثة وخدمات أساسية مما جعل الكثيرين من النّاس لايرغبون في التوجه اليها إلا عند الضّرورة .



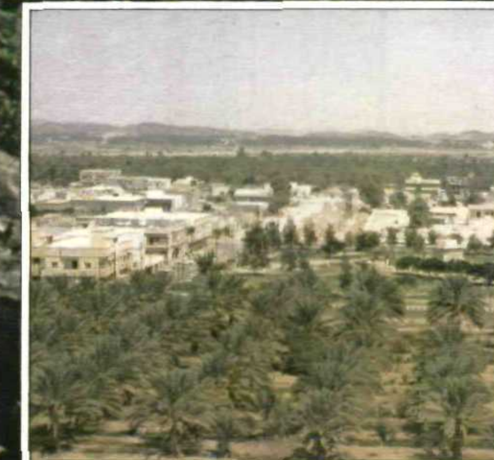
أبهـا عاصمة منطقـة عسير ، التي أصبحت
تحمل اسم « عروس الجنوب » .

هكذا كانت عسير في الماضي ، أما اليوم فقد أصبح الصعب سهلا وامتد إليها يد البناء تمشيا مع مسيرة التطور التي تعيشها المملكة العربية السعودية ، كما تم ربطها بمناطق المملكة الأخرى عبر طرق معبدة ، وتحولت القرى والهجر والأرياف برمتها إلى مدن حديثة أمثال : احد رفيدة ، سراة عبيده ، ظهران الجنوب ، تثليث ، حجلا ، النماص ، محايل . وقامت فيها المدن الكبرى كأبها ، والخميس ، وبيشه ، كذلك اتسعت اتساعا كبيرا وانتشرت المباني بأنماطها المختلفة والمجمعات السكنية والفنادق على اختلاف مستوياتها . كما يوجد في هذه المنطقة مطاران ، هما مطار أبها ومطار بيشه . ومازالت مشاريع الإنماء تطرد تباعا في مختلف المجالات ، ومن بين هذه المشاريع المتنزه الوطني الذي أوشك بناؤه على الانتهاء ، والقرية السياحية بالسوده ومحطات الكهرباء وتحلية المياه ومد شبكات الطرق في أرجاء المنطقة ، وفتح كليات للتعليم العالي . كل هذه الأشياء أصبحت حقيقة ملموسة في منطقة عسير علاوة على ما حباها الله به من طبيعة فاتنة وجو شاعري أثار قرائح الشعراء ، وقد وصفها الشاعر بقوله :

بلاد كل ما فيها جميل
لها سحر ولا سحر الحسان

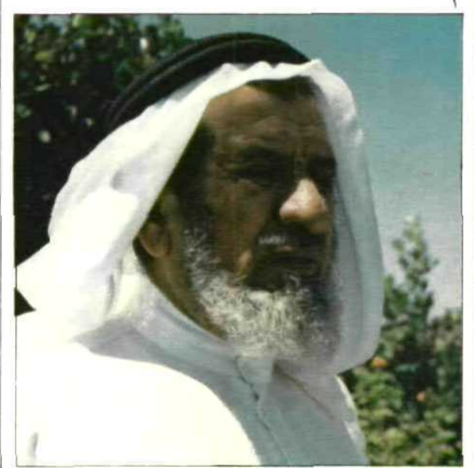
لقد درجت القافلة ، من حين إلى آخر ، على القيام باستطلاعات مصورة لمختلف مناطق المملكة . وهذا الاستطلاع الذي بين أيدينا هو عن منطقة عسير التي تقع في الجزء الجنوبي الغربي للمملكة . ما بين خطي الطول ٤١ و ٤٤ وخطي عرض ١٧,٥ و ٢٠,٥ . وتقدر مساحة المنطقة بنحو ١٤٠ ألف كيلومتر مربع . ان الزائر لهذه المنطقة تطالعه معالم وتضاريس ومناخات متباينة . ورحلتنا هذه ، لاشك ، قد نقلتنا إلى عالم آخر ، فمن منطقة منبسطة على ضفاف الخليج هي المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية التي تشتد فيها الحرارة والرطوبة حيث تبلغ الحرارة أحيانا ٤٧ درجة مئوية صيفا ، حللنا بأبها حيث تتراوح الحرارة صيفا ما بين ٢٢ و ٢٨ درجة مئوية . ومما يلفت نظر القادم إلى هذه المنطقة أنه في فصل الصيف وعند نزوله في مطار أبها والنسيم



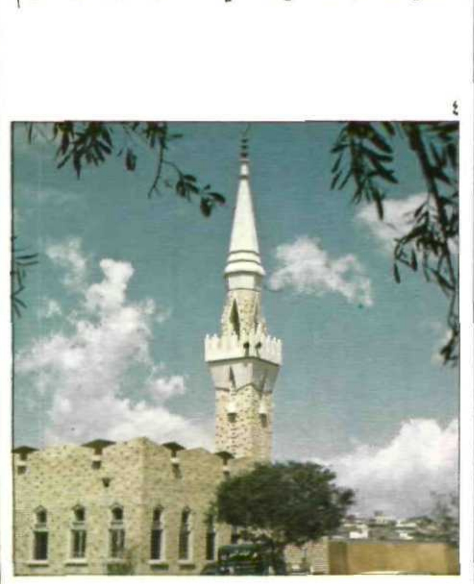




٣



٤



١ - صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير يرعى التطور الكبير الذي تشهده المنطقة .

٢ - منظر جانبي لمدينة بيشه تزينها أشجار النخيل الباسقة .

٣ - وجه عربي أصيل من منطقة عسير .

٤ - أحد المساجد الحديثة المنتشرة في ربوع منطقة عسير .

المنعش يداعب محياه ، يفاجأ بأن المستقبلين يرتدون الملابس الشتوية في غير أوانها . ولكنه عندما يهبط أرض المطار سوف يحاول أن يبحث له عن ملابس كتلك التي رآها على المستقبلين وكان ذلك واقع حالنا عند وصولنا أبها .

لقد كان مطار أبها في حركة دائبة أشبه ما يكون بخلية نحل ، ومما يلفت النظر في المطار هو أن مبناه الحديث قد شيّدت بعض جوانبه بصخور المنطقة فتمثلت فيه معالم البيئة المحلية .

وفي طريقنا إلى أبها كنا نشاهد معالم التطور التي أخذت تنتشر في مختلف أرجاء المنطقة ، فعلى جانبي الشارع الرئيسي الذي يربط مدينة أبها بمدينة الخميس ، تراءت لنا قرية باحص النموذجية ، ومباني كلية التربية ، ومبنى إدارة الشركة السعودية الموحدة للكهرباء بالمنطقة الجنوبية بالإضافة إلى المؤسسات التجارية المختلفة . كانت تطالعنا ، ونحن نغذ السير نحو مدينة أبها ، الحركة العمرانية المنتشرة في أرجاء المنطقة بشكل واسع ، وعند اقترابنا من المدينة مع شمس الأصيل ، تراءت لنا جبالها الشاهقة ومعالمها العمرانية بين حديث وقديم ، وما أن أرخى الليل سدوله على المدينة حتى بدت أنوارها وكأنها تعانق رؤوس الجبال ، وكان سائق السيارة التي استقللناها يحدثنا عن مدينة أبها ماضيها وحاضرها وكأنه دليل سياحي لنا .

مدينة أبها الحديثة

لقد تطورت أبهـا تطورا سريعا فأصبحت عروس الجنوب بلا منازع وذلك لما تمتاز به من تخطيط حديث وشوارع فسيحة . ان هذا التطور السريع ليجعل الشخص الذي زار أبها من قبل لا يصدق ما يراه فيها اليوم . إذ لولا وجود بعض المنازل القديمة التي تميزها لخيل إليه ان هذه ليست مدينة أبها التي كان يعهدها سابقا . فهناك المجمعات السكنية ومجمعات المباني الحكومية والمراكز التجارية والفنادق العصرية ومباني الكليات وغيرها مما تعكس سمات هذا التطور . وتمتاز مدينة أبها بمعالمها الأثرية ، ويحيط بها حزام أخضر ذو اتجاهين مما يتيح للزائر التجوال في أرجائها للتعرف إلى معالمها ومتنزهاتها .. تلك هي أبها الحديثة .

أبها القديمة

كانت أبها القديمة ، إلى عهد قريب ، تعرف باحتضانها لعدة قرى منها : مناظر ، مقابل ، نعمان ، المفتاحة ، القرى ، الربوع ، الصفيح ، الخشع ، النصب . وقد ذكر الهمداني في كتابة « صفة جزيرة العرب » هذه الأسماء ضمن أوطان عسير ، وذكر أنه يوجد فيها قبر ذي القرنين ، وقد سألنا الشيخ هاشم النعمي المؤرخ والباحث في تاريخ المنطقة ، عن صحة هذا القول ، فأجاب بأن البحث لازال جاريا حول صحته حتى الآن .

وباعتبار أبها عاصمة للمنطقة منذ زمن بعيد ، فقد مرت بمراحل تغيير مستمرة ، ومن ذلك أنه في سنة ١٢٤٢ هـ عندما وصل الأمير علي بن مجثل المغيدي العسيري إلى الحكم ، بنى أول مقر له عرف بـ « قلعة المفتاحة » ، فاعتبر ذلك امتدادا لنشوء مدينة أبها ، ثم شيد فيها الأمير « عائض بن مرعي » جد أسرة آل عائض حكام عسير سابقا مقرا لهم كان يعرف بقصر شدا . أما في عهد الأتراك ، فقد شهدت أبها انشاء الثكنات العسكرية . وهكذا ظلت أبها حتى امتدت إليها يد التطور في العهد السعودي حيث تحولت القرى إلى مدن حديثة تعتبر في مصاف المدن الرئيسية في المملكة .

منطقة عسير

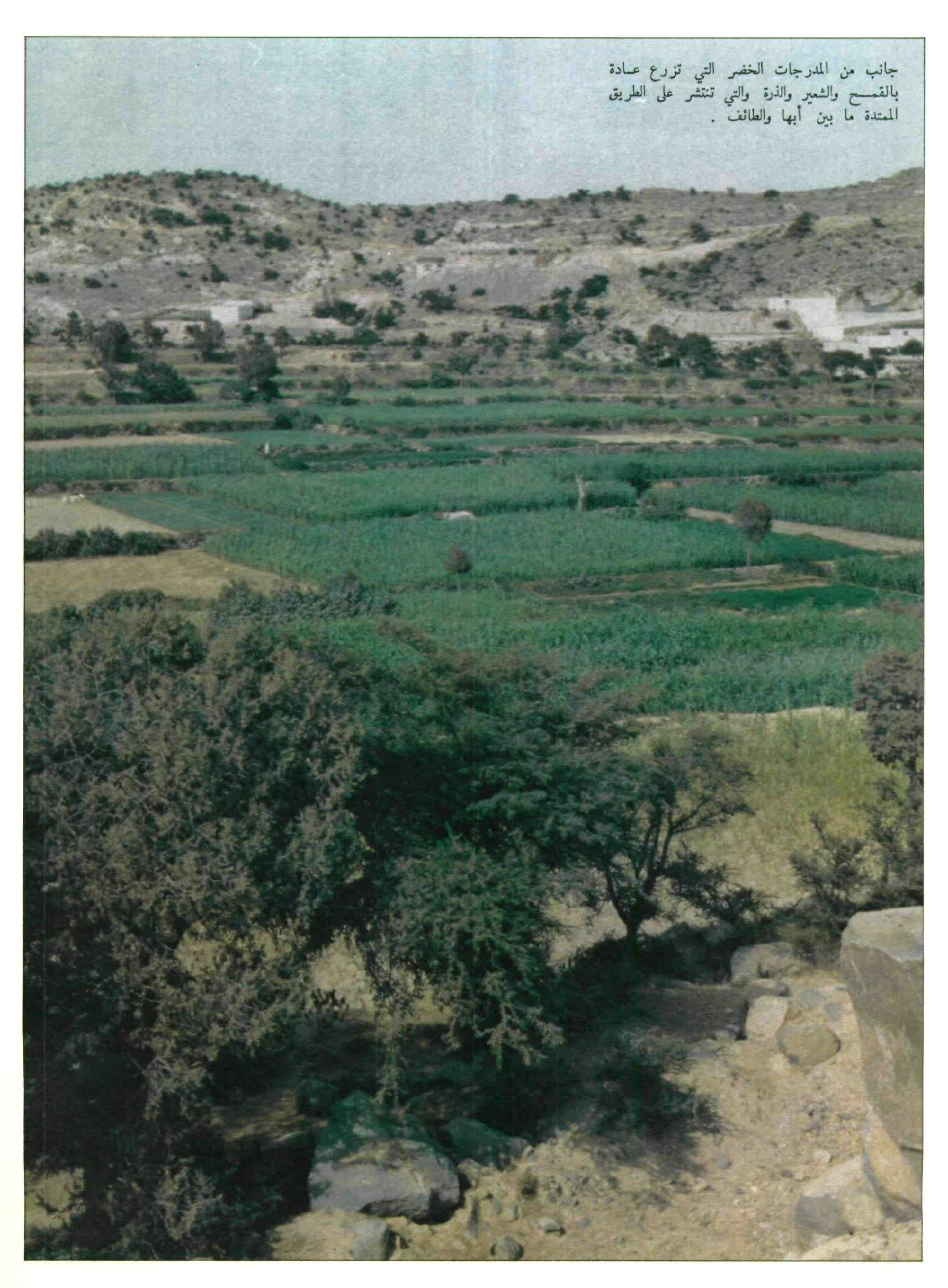
كان اسم عسير يطلق على منطقة محدودة هي أبها وقرى عسير المحيطة بها ، وأصبح اليوم يطلق على منطقة إدارية كبيرة حيث يحدها من الجنوب اليمن وتمتد حتى ظهران الجنوب ، فحدود منطقة نجران ، ومن الشمال سراة بالقرن وخثعم وشمران حتى حدود منطقة الباحة ، ومن الغرب تهامة عسير فالبحر الأحمر حتى حدود منطقة جيزان ، ومن الشرق الربع الخالي فتثليث حتى حدود وادي الدواسر ، فبيشه وتبالة .

أهم المدن في منطقة عسير

تضم منطقة عسير مدنا ذات أهمية تجارية وسكانية وعمرانية ، وفي مقدمتها أبها ، خميس مشيط ، بيشه ، محائل ، النماص ، ظهران الجنوب ، باشوت ، سراة عبيدة ، احد رفيدة ، تنومة ، اثنين باللسمر ، المجاردة ، تثليث ، طريب ، العرين ، المضه .

وتعتبر أبها المقر الرئيسي للمنطقة وإن صحت العبارة عاصمتها ، ويتبع امارة المنطقة حوالي ٥٦ امارة فرعية موزعة في أنحاء المنطقة . وفي أبها حوالي ٣٠ إدارة ومصلحة حكومية .

وكان لنا لقاء مع سمو الأمير خالد الفيصل ، أمير المنطقة ، وسمو نائبه الأمير فيصل بن بندر حيث رحبا بالقافلة التي أخذت تسجل بالكلمة والصورة حياة أبناء عسير لتعطي بعض اللمحات عنها ، ماضيها وحـاضرها ومستقبلها . فكانت هذه الجولة في قراها ومدنها وجبالها وسهولها وغاباتها وحقولها ، ولاشك ان الزائر لمنطقة عسير سيستعذب مناخها ويؤخذ بجمال طبيعتها وطيبة أبنائها .

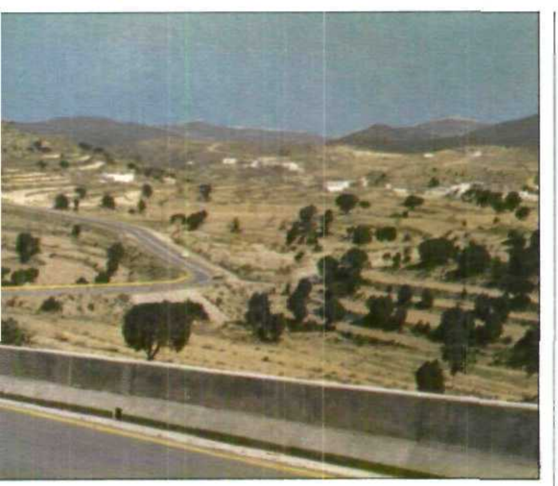


جانب من المدرجات الخضر التي تزرع عـادة بالقمـح والشعير والذرة والتي تنتشر على الطريق الممتدة ما بين أبها والطائف .

جبـــال تهامة الخضر تغطي سفوحهـــا أشجار العرعر ، ويبدو الطريق الترابي المؤقت عبر قمم وبطون الأودية .



جانب من مدينة خميس مشيط التي تشهد نهضة عمرانية وتجارية كبيرة .



ترتبط مدن وقرى منطقة عسير بالمناطق الأخرى بواسطة ش

لامثـل ... مـوجَاني

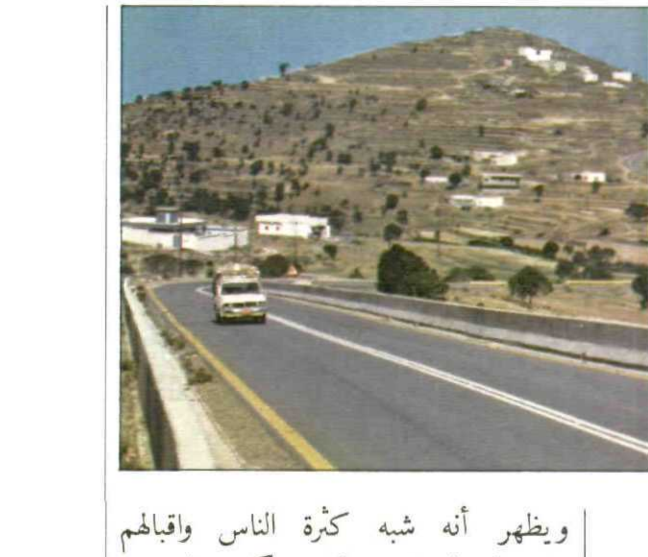
من أبها اتجهنا إلى مدينة الخميس ، وكنا نشاهد على جانبي الطريق المؤدي إلى الخميس : الاحياء الجديدة بفللها السكنية الحديثة ، والحدائق الجميلة ، وملاعب الأطفال ، والقرى السياحية حيث كانت تعج بالمصطافين . وتعد مدينة الخميس التي تقع في أرض منبسطة حاضرة بلاد شهران . وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى ابن مشيط شيخ القبيلة ، وإلى السوق الأسبوعي الذي يقام فيها كل يوم خميس ، وهي تتميز بحركتها التجارية النشطة حيث كان يتوافد عليها وعلى سوقها معظم سكان منطقة عسير ، وقد كانت خميس مشيط ومازالت أكثر المدن نشاطا وازدحامـــا بالناس . ولهذا يحلو لسكان الخميس أن يسموا سوقهم «موجان» ، ويؤكد ذلك ما قاله الشاعر الشعبي عنها :

سوقت أنا سوق الثلاثاء
قالوا لحد مصر المقاضي
لا مثل موجاني

أي أن الشاعر ذهب إلى سوق الثلاثاء في مدينة أبها فسوق أحد رفيده في بلاد رفيده فلم يجدهما في مستوى سوق خميس مشيط رواجا وحركة ،

جانب من مدينة أبها حيث تنعكس النهضة العمرانية على مبانيها السكنية الحديثة .

ق معبدة تمتد على سلسلة الجبال وبطون الأودية .



ويظهر أنه شبه كثرة الناس واقبالهم على هذه السوق وحركتهم كموج البحر . ومدينة خميس مشيط تشهد حاليا تطورا تجاريا وعمرانيا وصناعيا مما سيجعلها المدينة التجارية والصناعية الأولى في الجنوب .

وانطلقنا إلى ما وراء الخميس شرقا ، وعلى الطريق شاهدنا مدينة الملك فيصل العسكرية بالجنوب حيث تجثم بالقرب



منطقة عسير حيث تبدو باللون الاخضر .

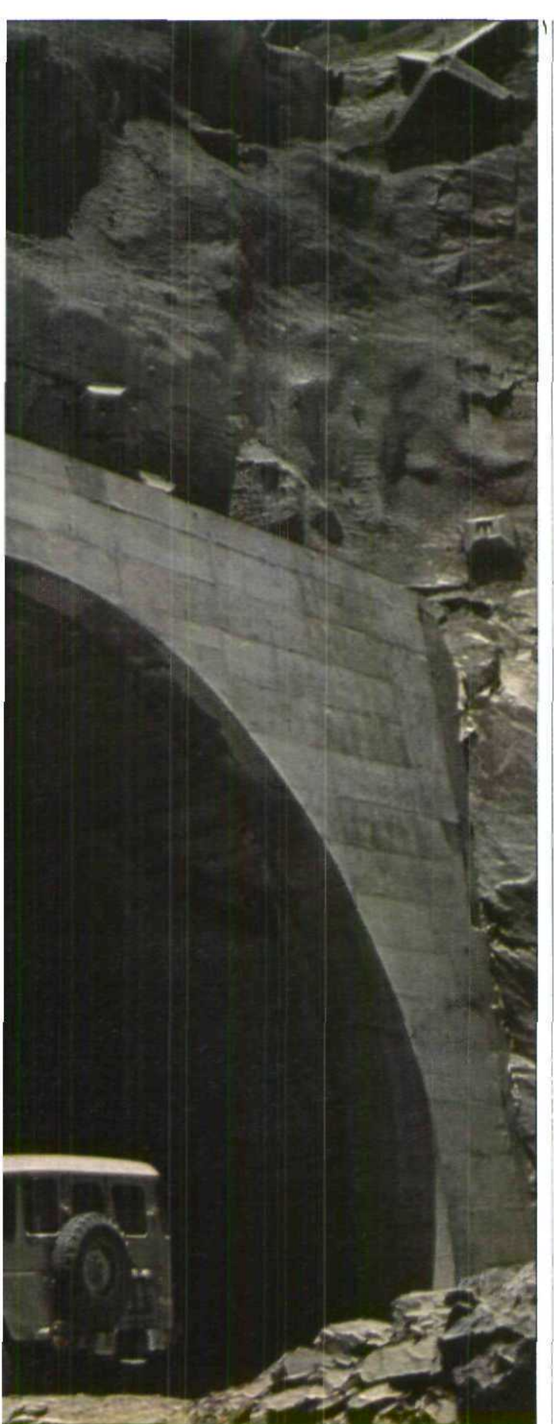
منها من الجهة الشمالية أنقاض مدينة جرش الأثرية وهي على ضفة وادي بيشة بن سالم احد مشائخ قبائل قحطان ، وفي الجهة الشرقية منها ، يقع جبل حمومة أو جبل شكر المشهور . وفي طريقنا المتجه شرقا مررنا بمدينة احد رفيده التي تبعد عن أبها حوالي ٤٥ كيلومترا ، ثم وصلنا وادي المربع بالقرب من بلدة الشيخ سعيد بن هيف من مشائخ قبائل قحطان . وعلى غير انتظار ، تلبدت السماء بالغيـــوم ومالبثت أن همت بأمطار غزيرة استحالت إلى سيول فاضت بها الأودية والشعاب . وهذا الوادي تكثر فيه الأشجار والأزهار والأعشاب المختلفة مما يجعلها تجذب العديد من السكان للنزهة . ثم واصلنا جولتنا باتجاه سراة عبيدة وكنا نرى على الطريق العديد من قرى رفيده وبني بشر المنتشرة في السهول وفي الجبال . وقد التقينا بالشيخ « سعد بن ثقفان » شيخ قبائل بني بشر الذي كان لنا معه حديث عن ماضي هذه المنطقة وبالذات فيما يتعلق بجبالها حيث قال : « ان هذه الجبال كان صناع الحديد المحليين يستخرجون منها الحديد الذي يصنعون منه معدات الفلاحة التقليدية وبالذات المكان المعروف « بعين اللوي » ، وهذه الجبال يسكن سفوحها بادية رفيده وبنو بشر ومنهم قبائل جنب بن سعد . وبعد أن تجاوزنا رفيده وبني بشر التي تحيط بها الجبال ، اقتربنا من سراة عبيدة التي تمتاز بانبساط أرضها ، ومما يلفت النظر ، ذلك التطور العمراني ومحطات الوقود المنتشرة على جانبي الطريق ، وجبل ظلم الذي تطل من فوقه محطة تقوية البث التلفزيوني ، والذي يقف كالحارس الرقيب على مدينة سراة عبيدة تعانقه جبال آل الصقر وآل معمر وبني طلق ووقشة حيث ترقد في سفوحها القرى العديدة التي تفيق على خرير مياه سد وادي المحزمة الذي يعتبر خطوة أولى في سبيل اقامة أمثاله في السراة .

وفي سراة عبيدة حظينا بلقاء شيوخ قبائل عبيده وهم : الشيخ سعد بن فردان ، والشيخ هيف بن سليم ، والشيخ محمد ابن جلاله ، ودار الحديث معهم حول المشاريع التي تضطلع بتنفيذها الدولة في منطقتهم ، وفي مقدمتها مشروع سراة عبيدة بوادي المحزمة والذي سوف يساعد ، ولاشك ، على اتساع الرقعة الزراعية هناك ، وكذلك مستشفى سراة عبيدة العام الذي بدئ في تنفيذه مؤخراً ، إلا أنهم يأملون في سرعة ايصال الخدمات الكهربائية لتواكب مسيرة التطور الذي تعيشه بلاد قحطان .

وحول اسم عبيدة ، كما جاء على ألسنة بعض الرواة ، فهو نسبة إلى أمهم ، وعلى ذمة الراوي أن سعد العشيرة ، الذي له قصة مشهورة في التاريخ ، كان ملكاً في تلك المنطقة ، وقد توفي وخلفه أبناؤه ومنهم معاوية بن جنب ابن سعد العشيرة .

وابان عهد رئاسته ، وأثناء حرب « البسوس » ، لجأ إليه مهلهل الفارس المشهور ، أخو كليب بن ربيعة ، من تغلب في أربعين فارسا من مواليه ومعه أسرته ومنهم عبيدة بنت مهلهل ، وكانت جميلة وفارسة مع كونها من بيت امارة في الوقت نفسه . وقد تزوجها معاوية بن جنب وأولدها أولادا ذكورا فانتسبوا إلى أمهم عبيدة بنت مهلهل لشرفها ، فأطلق عليهم عبيدة ، ومساكنهم تمتد من أقصى جبال السراة فالربع الخالي في الشرق حتى وادي تثليث في شمال المنطقة .

واصلنا رحلتنا في اتجاه حدود المنطقة من الجنوب ، وكنا نشاهد مظاهر التطور العمراني في كل من الحرجة وقرى شريف وسنحان المنتشرة على جانبي الطريق وفوق سفوح الجبال . والجدير

١


٢


١ – أحد الأنفاق العديدة التي أنشأتها وزارة المواصلا[ت] بالسراة وتفك عنها العزلة التي فرضتها الطبيعة عليها .

٢ – جسر وادي بيشه الذي يعتبر من فحول أودية المملكة

بالملاحظة ان طريقنا الطويل الممتد من أبها حتى الحدود الجنوبية للمنطقة ، يفضي إلى غالبية القرى . وهذا ولا شك قد استغرق الشيء الكثير سواء من الناحية الزمنية في إعداد هذا المشروع أو وقت تنفيذه . وأما الجانب المادي ، فحدّث ولا حرج ، فالدولة تبذل بسخاء في سبيل راحة المواطنين في أية بقعة بالمملكة . ومن الجدير بالذكر أن منطقة قحطان الواقعة ما بين جرش وتثليث وبلاد وادعه ، كثيفة السكان وتشتهر بكثرة مزارعها وقراها الجميلة التي تتميز برونق بنائها الاقليمي ، وقد شبهها الهمداني في كتابه « صفة جزيرة العرب » بالعارض من أرض اليمامة (١) . وعلى بعد ٢٥٠ كيلومترا تقريبا من أبها ، حططنا رحالنا في مدينة ظهران الجنوب التي تشتهر بمركزها التجاري والزراعي قديما وحديثا ، وهي نقطة وصل بين تجار المملكة واليمن قديما وحديثا ، ويتوافد على سوقها التجاري أبناء قبائل وادعة وسنحان ، وشريف ، ويام ، وأبناء اليمن الشقيق الوافدون لغرض التجارة أو العمل .

مواقع سياحية - حقول زراعية - كثافة سكانية

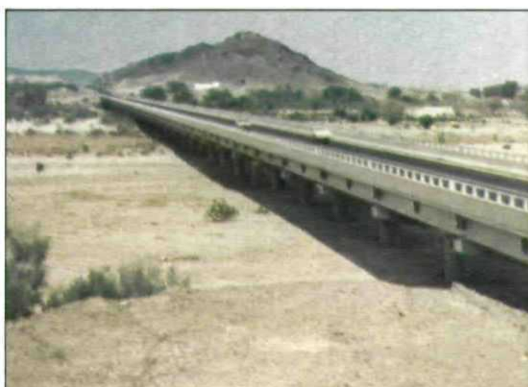
أثناء وجودنا في أبها ، تلقينا دعوة من مديرية الشؤون الصحية بالمنطقة الجنوبية لحضور ندوة صحية أقامتها في مدينة بيشه . فكانت فرصة طيبة للوقوف على المشاريع الصحية في المنطقة . وانطلقنا بالسيارة عبر جبال وقرى علكم الجميلة ، وكنا نصعد جبلا ونهبط آخر مرورا ببلاد باللحمر وباللسمر حتى وصلنا شلال الدهنا حيث المياه والغابات بالقرب من تنومة ، مقر الشيخ محمد الشبيلي شيخ قبائل بني الأثلة بني شهر . والواقع أن منطقة رجال الحجر على وجه الخصوص وطريق الطائف أبها على وجه العموم يكثر فيها الغابات والشلالات والمناظر الطبيعية الأخاذة ، فإذا ما تضافرت الجهود سواء على الصعيد الرسمي أو الفردي للعناية بها فلسوف تغدو هذه البقعة من أجمل المناطق السياحية في المملكة ، ومن هناك يممنا شطر مدينة النماص مقر الشيخ العسبلي ، شيخ قبائل سلامان بني شهر ، حيث تراءت لنا معالم التطور العمراني ، وكانت هذه المدينة حاضرة رجال الحجر ، ومنها مررنا على ديار بني عمرو وبالقرن وخثعم وشمران . وكنا نمتع أنظارنا بجمال جبالها المتربعة على امتداد هذه المنطقة حيث كانت تبدو وكأنها بسط خضر ، تتوسطها أشجار الزيتون والعرعر والطلح والسدر . ومن بين الأشجار ومن بطون الأودية كنا نلمح العديد من القرى الوادعة والحصون والأبراج التي هي من أبرز معالم هذه المنطقة المنتشرة بشكل واسع إذ لا تكاد قرية تخلو منها . وكنا نرى على جانبي الطريق المدرجات الزراعية ، وقد اكتست تلك المدرجات بحقول الذرة التي أضفت عليها جمالا إلى جمال . حقا انها لمناظر طبيعية جميلة تسر الناظرين ، وقد أكسبها الطريق الجديد روعة وجمالا ، فما أحرى بالمواطن أن يقضي اجازته السنوية في هذه الربوع ليرى جمال بلاده وينسى ولو لأيام معدودة وهج الشمس وشدة القيظ في أيام الصيف . ان من تعودت عينه رؤية المناطق الأخرى من المملكة بل من هو ساكن بها لا يصدق ما تراه عيناه هنا .

بيشة الفيحاء

بعد أن مررنا بسبت العلاية ، وهو مجمع حكومي ، تتردد عليه معظم قبائل بالقرن وخثعم وشمران لانجاز

(١) صفة جزيرة العرب – ص/٢٠٢ .





كل من عقبة شعار وضلع والجوه لتربط منطقة تهـامة ... ع طوله حوالي كيلومترين .

معاملاتهم الرسمية ، سلكنا طريق بيشه النخل وعندها تغيرت مظاهر الطبيعة ، فمن أرض جبلية وعرة مكسوة بالغابات إلى أرض منبسطة سهلة ، أخذنا نقترب رويدا رويدا من بيشة ، وكانت النخلة هي الوجه المشرق لهذه المنطقة ، وقد مررنا بالكثير من الأودية التي تقوم على ضفافها العديد من القرى حتى وصلنا إلى وادي بيشه المشهور الذي يعتبر من فحول الأودية في المملكة والذي يقدر طوله بحوالي ٣٥٠ كيلومترا .

وقد دلفنا مدينة بيشه من على الجسر الواصل بين ضفتي الوادي والممتد حوالي كيلومترين ، وكانت تحيط بها بساتين النخيل من كل جانب . وتمتاز مدينة بيشه بشوارعها الفسيحة وأشجار نخيلها التي تعانق كل شيء من حولها وكأني بها وهي تقول ، أنا سيدة الديرة . وفي مقر الامارة استقبلنا سعادة الأمير حسين ابن عبد الله آل زلفة الذي حدثنا عن أهمية بيشه تجاريا وزراعيا . وتمر بيشه معروف لدى أبناء المملكة وله شهرة واسعة ، وعلى وجه الخصوص في منطقة الجنوب . وأرض بيشه خصبة ومياهها وفيرة ، فبالاضافة إلى وجود النخلة التي هي دعامة الزراعة فيها ، تقوم زراعة



سعادة الشيخ حسين بن عبد الله آل زلفه ، أمير بيشة بالوكالة يقول : تمر بيشه يصنف بين التمور الجيدة في المملكة .

الحمضيات بأنواعها والخضروات . وفي منطقة بيشه مطار ، وهي مرتبطة بطريق معبّد يلتقي بطريق أبها / الطائف . وهذان المشروعان ولاشك يخدمان منطقة بيشه بشكل فعّال . ومن المشاريع التي توليها الدولة أهمية خاصة ، توزيع الأراضي البور على الراغبين من سكان بيشه ، واستغلالها على الوجه الأمثل بالإضافة إلى تقديم العون المادي والاستشاري لهم .

ولتصريف المنتوجات الزراعية الوفيرة في بيشه ، اعتمد في ميزانية هذا العام بناء شبكة من الطرق المعبدة تربط بيشه بخميس مشيط ، كما ستخدم في الوقت نفسه العديد من القرى والهجر التابعة لبيشه . وكذلك ربط كل من رنيه وتثليث بمدينة بيشه . وهناك وصلات طرق يجري تنفيذها لربط معظم قرى المنطقة بالمدينة نفسها . بالإضافة إلى شبكة من الطرق الزراعية التي تربط اجزاء المنطقة بعضها ببعض . وتعتبر خميس مشيط وأبها وبلاد قحطان ورجال الحجر والرياض والطائف والباحة ، أسواقا لمنتجات بيشه الزراعية . وتعد الروشن المقر الرئيسي للمنطقة حيث توجد الامارة التي يتبعها خمسة مراكز موزعة في أنحاء المنطقة . ولتوفير الراحة والخدمة للمواطنين ، هناك عدة إدارات حكومية في بيشه منها إدارة الطرق ، والبلديات ، والأوقاف ، والمالية ، والأحوال المدنية ، والبرق والبريد والهاتف ، والضمان الاجتماعي ، ومستشفى عام وعدة مستوصفات وغير ذلك من المرافق الأخرى . وأثناء وجودنا هناك حظينا بمقابلة العديد من المسؤولين والمواطنين في بيشه ، الذين يتطلعون إلى قيام كلية للزراعة في منطقتهم تسهم في تنشيط هذا القطاع الحيوي علميا ، لتأخذ منطقة بيشه دورها كالمناطق الزراعية الأخرى في المملكة ، في سد حاجة

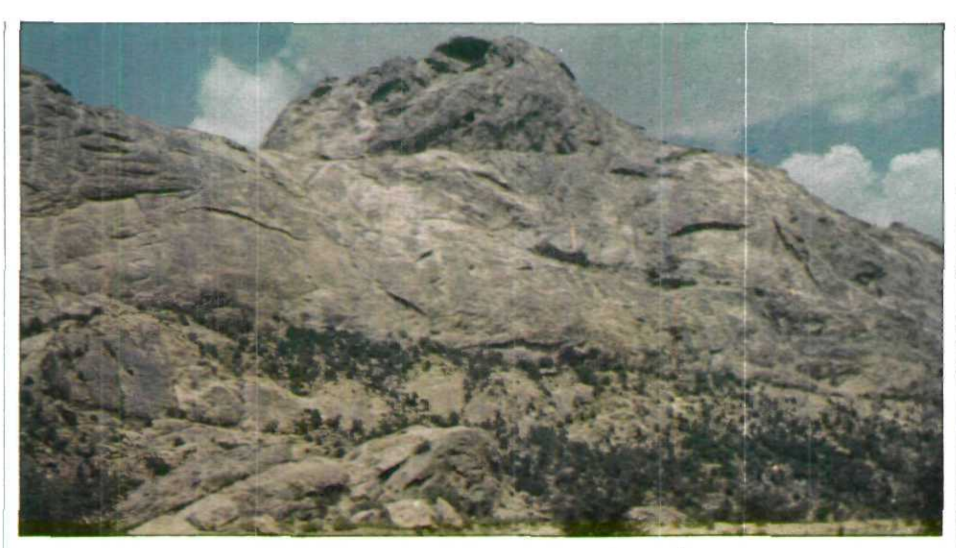


جانب من الندوة الصحية التي أقيمت في مستشفى بيشه العام ويبدو في مقدمة الحضور ، سعادة أمير بيشه بالوكالة ، وسعادة المدير العام للشؤون الصحية في المنطقة الجنوبية ، وفضيلة رئيس المحاكم الشرعية في بيشه ، ومشائخ قبائل بيشه والأعيان .

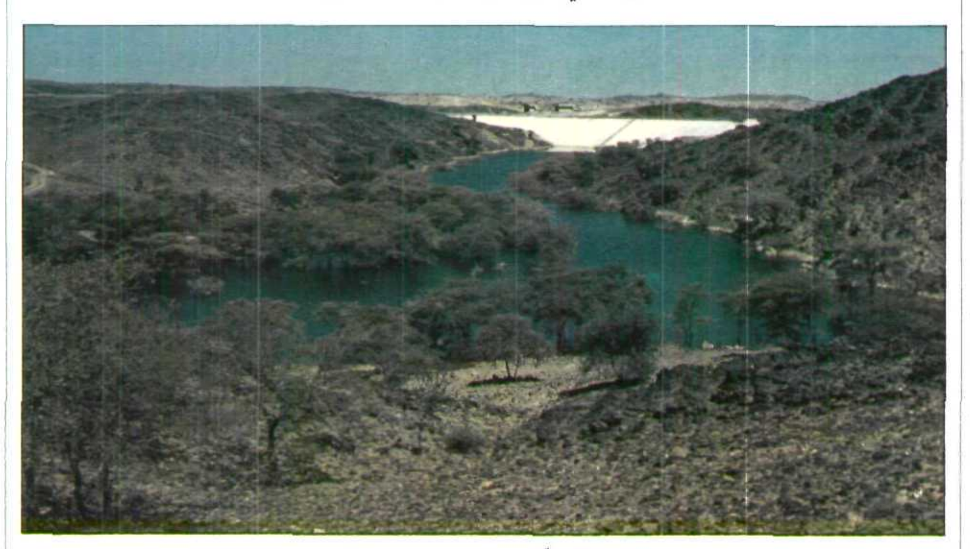
تتجه الطرق من مدينـة أبهـا إلى بقية المنـاطق وينحدر هذا الطريق عبر هذه الغابات في اتجاه مدينة بيشه مرورا بقبائل علكم من عسير ورجال الحجر وبالقرن وخثعم وشمران .

البلاد من خيراتها وما ذلك ببعيد ، إن شاء الله .

وفي لقاءات متفرقة مع كل من الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن آل الشيخ مدير الأوقاف ببيشه ، والشيخ مشاري بن عامر الصعيري شيخ قبائل بني سلول والأستاذ سعيد عبد الله الغامدي مدير إدارة إمارة بيشه ، كان الحديث يدور حول ماضي بيشه وحاضرها وأهميتها زراعيا . ومما قالوه انه بالاضافة إلى كون بيشه منطقة زراعية فانها كانت ولاتزال مركزا استراتيجيا ممتازا حيث كانت نقطة التقاء بين تجار الجنوب ونجد والحجاز مشيرين إلى أن بيشه قابلة للتطور بحكم موقعها وخاصة في مجال الزراعة وإذا ما تضافرت جهود الدولة والأهالي فستصبح من أهم المناطق الزراعية في المملكة حيث تتوفر فيها المياه بغزارة بالاضافة إلى تربتها الخصبة . أما الأستاذ سعيد الغامدي والمهتم بتاريخ بيشه والذي رافقنا في جولتنا ، فمما قاله : « كان يسكن وادي بيشه قديما وحديثا ، بنو سلول من قبائل شهران وكانت قبائل خثعم تغير على بني سلول لطردهم من هذا الوادي فحمل عبد الله بن همام السلولي الشاعر ، شيئاً من ماء بيشه وتربتها إلى هشام بن عبد الملك في الشـام وطلب إليه استصلاح هذه الأرض لخصوبة أرضها ، فأمر هشام عامله بمكة المكرمة بأن يرسل إلى المكان المسمى « المعمل » في بيشه مئتي زنجي من وادي فاطمة المعروف بالحجاز وذلك لاستصلاح المعمل وبهذا فقد أنقذنا من غارات خثعم وبقي بنو سلول وقبائل شهران مع اخوانهم قبيلة أكلب من خثعم وغيرهم في وادي بيشه واستصلحوا الأرض وزرعـوها . وينحدر نسب القبيلتين كما جاء على لسان المؤرخين ، من الأزد من القحطانية ». وقد أشار إلى أن بيشه تشتهر بواديها الذي ربما كان هو اسمها ويرفد هذا



أحد جبال بني شهر الواقعة في منطقة عسير .



سد وادي المحزمة الذي أقامته وزارة الزراعة في سراة عبيدة .

الوادي عدد كبير من الأودية كان لبعضها شهرة عظيمة ، ومنها ، وادي ترج الذي يلتقي بوادي بيشه عند قرية الحيفة ، ومنبعه من أعالي ديار رجال الحجر وفيه يقول الشاعر ابن مقبل

جلوسا بها الشم العجاف كأنهم
أسود بترج أو أسود بعتـودا

وقال الخزازة العامري في خصب ترج وغنى تربته :

وكأن النخيل من بطن ترج
وهي حوم حنـادس ظلماء

ومن روافده أيضاً ، وادي تباله ، وينسب إلى تباله بيت « ذو الخلصة » ، وهو من الأصنام التي كانت العرب تقدسها في الجاهلية . ومع ما ذكره الأستاذ الغامدي ، فوادي تباله معروف ومشهور وقد ورد ذكره كثيرا في كتب العرب وقال فيه طرفة :

رأى منظرا منها بوادي تبـاله
فكان عليه الزاد كالمقر أو أمر

وذكر عبد الله بن عبد الرحمن الأزدي في كلمته التي يذكر فيها افتراق الأزد :

فكلكم خيار النـاس قدما
وأجلدهم رجـالا بعد عـاد
وأكثرهم شبابـا في كهول
كأسد تبـالة الشهب الوراد

كما ورد ذكر تبالة مع ترج وبيشة وهرجاب وقرى حوران وسواها في قصيدة الخزازة العامري ، وجاءت في أرجوزة الحج لأحمد بن عيسى الرداعي . وترج



تنتشر المجمعات السكنية على الطريق الرئيسي بين مدينتي أبها والخميس .



سمو أمير منطقة عسير يتحدث إلى كاتب السطور عن ماضي المنطقة وحاضرها ومستقبلها .



مبنى مطعم الديوان في قرية باحص النموذجية . تصوير : علي عبد الله خليفة

وتبالة واديين من فحول أودية بيشه ، أما عتود فهو واديان ، احدهما يتجه شرقا والآخر غربا ، وكلاهما ينبع من عقبة عتود في بلدة آل يزيد من بني مغيد من قبائل عسير ، فأما الذي ينحدر غربا فيصب في تهامة في وادي بيش . أما الذي يتجه شرقا ، فيصب في قرى آل رشيد في خميس مشيط ثم يتجه إلى بيشه .

ويرجح الهمداني أنه لم تكن بهذه الأودية أسد في الماضي حيث قال في كتابه « صفة جزيرة العرب » تحت عنوان : مواضع الأسد في هذه الجزيرة المضروب بها المثل ما يلي : « أسد تبالة وأسد ترج وبيشه وأسد عتود ، فأما تبالة وترج وبيشه فهي من أعراض نجد ، ولا يكون بها أسد ولم يكن ، وإنما تريد العرب أسود بيش ، وهي مواضع الأسد ووادي بيش في تهامة عسير ، ويزيدون فيه الهاء ويقولون بيشه بفتح الباء ، وبيشة بعطان فهي بكسر الباء ، وأن رؤوس هذه الأعراض من أعلى السراة ، منها ما ينحدر إلى نجد ومنها ما ينحدر إلى تهامة ، فما انحدر إلى تهامة فالأسد فيه ولهذا الجوار نسبوها إلى هذه الأعراض ، وربما قد طلع منها الواحد إلى أرض نجد قاطعا من بلده فعاث فيها ، فلعل أول من نسب الأسد إلى هذه المواضع عايش الواحد والزوج في بعض هذه الأودية » (٢) .

لقد أخذنا الحديث عن أهمية بيشه فكدنا لا ندرك الندوة الصحية التي دعينا إليها في مستشفى بيشه ، والواقع أنه في ليلة هادئة عاش مستشفى بيشه العام ندوة صحية سادها جو من الحوار الهادف في سبيل تطوير الخدمات الصحية في منطقة بيشه حيث نظمت مديرية الشؤون الصحية بالمنطقة الجنوبية لقاء بين منسوبيها والمواطنين وبعض المسؤولين لبحث ودراسة الخدمات الصحية والعمل على تحسينها . هذا وقد أجاب سعادة الدكتور عبد الرحيم محمد عقيل ، مدير عام الشؤون الصحية بالمنطقة الجنوبية وزملاؤه عن جميع استفسارات المواطنين فيما يتعلق بتطوير الخدمات الصحية في مستشفى بيشه والمستوصفات التابعة له . وقد أوضح سعادته ما للوقاية الصحية من أهمية أخذا بالقول المأثور « درهم وقاية خير من قنطار علاج » .

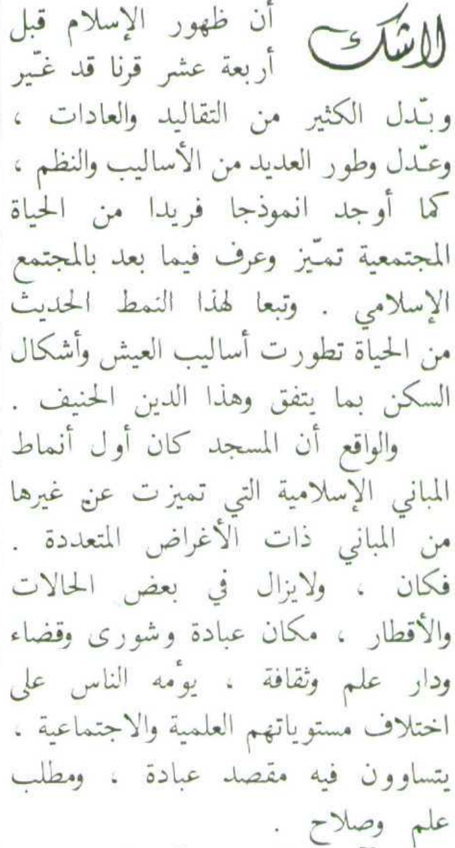
وبعد .. فهذه لمحة سريعة عن منطقة عسير ، وسنتناول في العدد القادم ، إن شاء الله ، جانبا من المشاريع الحيوية التي يجري العمل على تنفيذها في ربوع المنطقة □

(٢) صفة جزيرة العرب – ص/١٢٧ .

جولة في

المساجد الأثرية بالقاهرة

بقلم: ابراهيم أحمد الشنطي / هيئة التحرير



لاشك أن ظهور الإسلام قبل أربعة عشر قرنا قد غيّر وبدّل الكثير من التقاليد والعادات، وعدّل وطور العديد من الأساليب والنظم، كما أوجد انموذجا فريدا من الحياة المجتمعية تميّز وعرف فيما بعد بالمجتمع الإسلامي. وتبعا لهذا النمط الحديث من الحياة تطورت أساليب العيش وأشكال السكن بما يتفق وهذا الدين الحنيف.

والواقع أن المسجد كان أول أنماط المباني الإسلامية التي تميزت عن غيرها من المباني ذات الأغراض المتعددة. فكان، ولايزال في بعض الحالات والأقطار، مكان عبادة وشورى وقضاء ودار علم وثقافة، يؤمه الناس على اختلاف مستوياتهم العلمية والاجتماعية، يتساوون فيه مقصد عبادة، ومطلب علم وصلاح.

والآثار الإسلامية في القاهرة تعد بالمئات ونجدها موزعة في مختلف الأحياء الشعبية بالقاهرة. وقد نجد بعضها متقاربا جدا كما في شارع المعز لدين الله، بين القصرين سابقا، فتكاد تقف أمام المسجد وتشاهد غيره على مسافة منك.

على أن الآثار الإسلامية في القاهرة آخذة في التلاشي والاندثار. فقد جاء في تقرير نشرته منظمة «اليونسكو» قبل أشهر أن حوالي مئة أثر قد اندثر خلال القرن الأخير، وأن نحو ٤٠ أثرا قد تلاشت خلال العقد الماضي، وأن زوال الآثار الإسلامية يزداد سنة بعد أخرى ويخشى ألاّ يظل منها غير القليل.

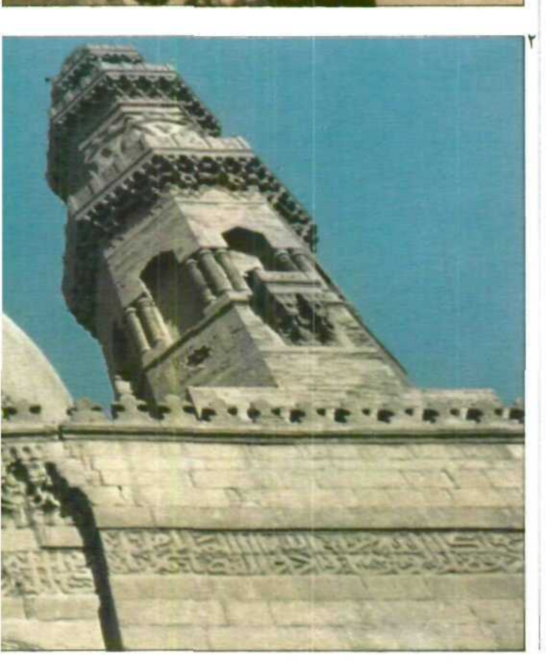
ويذكر التقرير أن حوالي ٦٠٠ أثر اسلامي كانت موجودة في القاهرة حتى عام ١٨٨١ م، وإذا ما نظرنا إلى ما تلاشى منها منذ ذلك التاريخ نجد أنه بلغ حوالي ٢٠ في المئة، وإذا استمر الحال هكذا فان كثيرا من الآثار الإسلامية ذات القيمة المعمارية ستتلاشى. ومعها ستفنى آثار المهندسين والفنانين المعماريين المسلمين الذين أبدعوا خلال القرون الأولى لدخول الإسلام إلى مصر وخلال عصور الفاطميين والمماليك والعثمانيين.

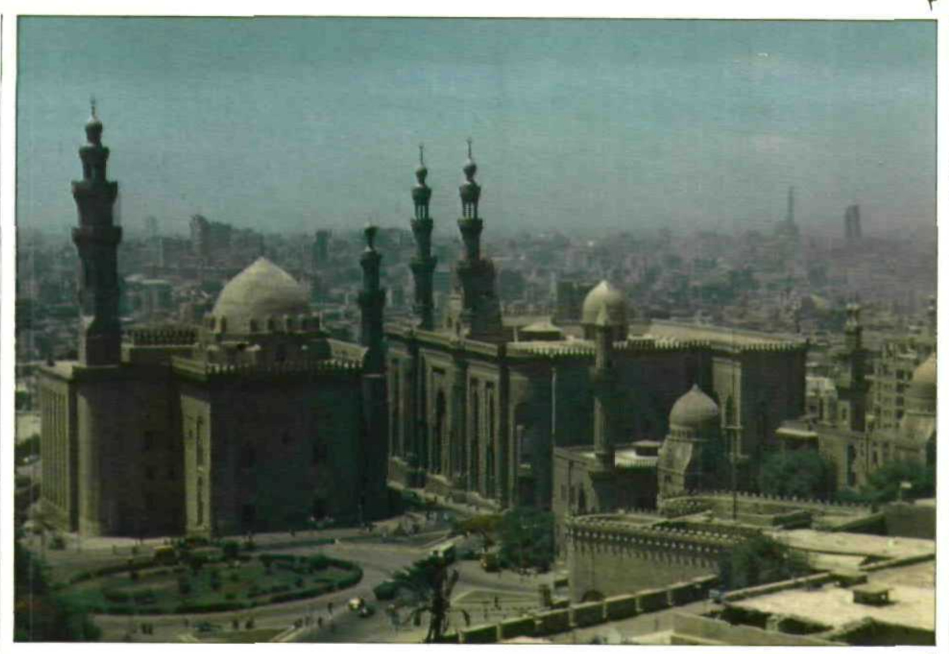
ويقول خبير في هذا الشأن إن من أهم الأسباب تلف شبكات تصريف المياه الصحية. فالآثار الإسلامية تقوم في الأحياء الشعبية التي أصبحت مكتظة بالناس، والشبكات فيها محدودة الطاقة، والمياه الصحية فيها إذا ما تسربت تفاعلت مع أساسات المباني وأحدثت فيها آثارها السيئة. أضف إلى ذلك زيادة حركة المرور وخاصة الشاحنات، فضغطها على التربة من تحتها يؤثر على أسس الأبنية التي تمر بجانبها. فما بالك بالطرق الضيقة القديمة التي بالكاد تمر الشاحنة خلالها علاوة على تخبطها بها، في بعض الحالات، مما يزيد الأمر سوءا.

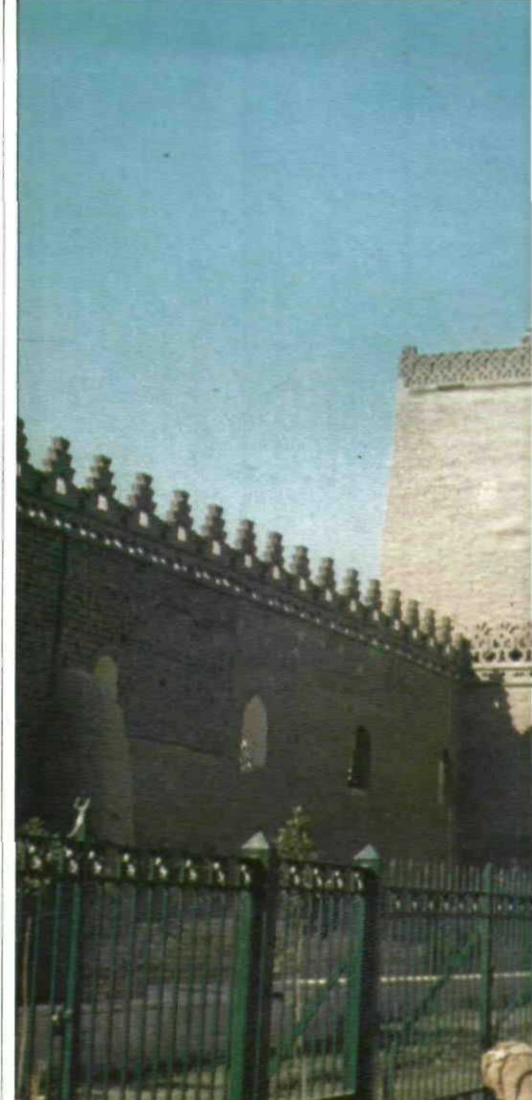
١

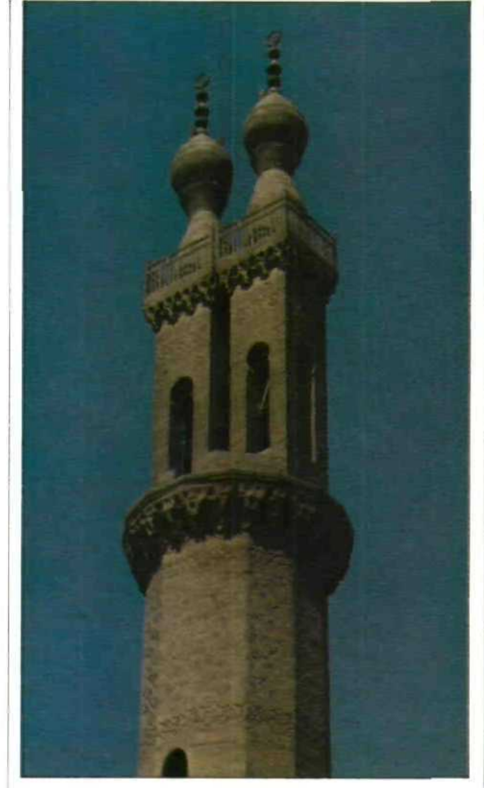


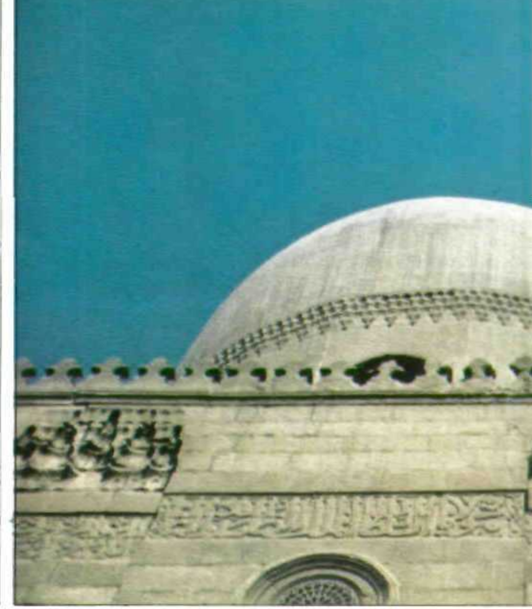
٢











ومن الأسباب الأخرى التي يعزو الخبير إليها زوال المباني الأثرية وجود بعض الحنفيات العمومية لمياه الشرب في جدران تلك المباني (سبيل) ، كما أن ضغط المباني حولها قد منع عنها التهوية فزادت نسبة الرطوبة وظهرت الأملاح على حجارتها وخاصة السفلية منها والقريبة من الأرض ، مما يهدد بسرعة زوالها عاما بعد عام .

وزيارة المساجد الأثرية أو القديمة في القاهرة مشوقة إذا كانت بقصد السياحة والاطلاع على آثار الأقدمين ، أما إذا كانت الزيارة بقصد الدراسة والاستطلاع ، فان الأمر لاشك يحتاج إلى جهد ومشقة لما يلزم لذلك من بحث وتقص . فمعرفة الأسس والأصول ، تختلف عن مشاهدة الواجهات والزخارف والنقوش ، بصورة عابرة بقصد الترويح عن النفس والاستمتاع برؤية ما أنجز الآخرون .

وقد يختلط أمر المساجد الأثرية القديمة بالحديثة والمجددة ، بالنسبة للزائر العادي أو السائح ، وخاصة إذا كان المسجد يحمل اسم أحد الصحابة أو التابعين . فجامع السيدة زينب ، ابنة علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، الكائن في الحي الذي يحمل هذا الاسم ،

١ – جامع الملك الصالح نجم الدين بالقرب من باب الفتوح .

٢ – مئذنة ذات ستة أضلاع تقوم كل من زواياها الست على ثلاثة أعمدة ، وفي كل ضلع ما يشبه الباب ، وهي على ثلاث طبقات وذات زخارف جميلة .

٣ – جامع الرفاعي بميدان صلاح الدين في القلعة .

٤ – مئذنة قايتباي بالجامع الأزهر ، وظهر في أعلاها مقصورتان تعلوهما قبتان رشيقتان .

أقامته وزارة الأوقاف عـام ١٩٤٠ م . وقد يكون البناء الحالي قد أقيم في مكان مسجد قديم درست آثاره وكان قد سمي بهذا الاسم من قبل . أما أن تكون السيدة زينب قد أمرت ببنائه في بادىء الأمر ، فهذا شيء لم تؤكده جمهرة المؤرخين لا سيما وأنها لم تقم في مصر أكثر من سنة واحدة ، حيث وصلتها في شعبان عام ٦١ هـ . وقضت نحبها في العام التالي . كما تقول بعض المصادر . أضف إلى هذا الحالة التي كانت عليها في ذلك الوقت العصيب ولم يكن قد مضى غير فترة قصيرة على استشهاد شقيقها ، وهناك من المصادر ما ينفي أصلا ذهاب السيدة زينب إلى مصر (١) .

على أن اختلاط الأمر على الزائر لا يفسد متعة السياحة والتجوال ، فجديد اليوم سيغدو قديما يوما ما ، كما كان قديم اليوم جديدا يوما ما . ولاشك أن مقارنة العمارة القديمة ، بالمتوسطة القدم ، وبالحديثة ستبدي للمشاهد بعض نماذج التطور والتشكيل الهندسي الجميل في ما سلف وما خلف .

وليس من المبالغة القول إن الزائر للآثار الإسلامية في القاهرة سيقضي أياما عديدة وهو يجول فيها متنقلا بين أثر وآخر . فما بالك بالدارس المستطلع لتلك الآثار والمشاهد !؟ كلاهما ، لاشك ، سيكل ويتعب ، وسيغض الطرف عن أثر لم يسمح له الوقت بزيارته ، وربما يقنع نفسه بالتقليل من أهميته وشأنه . وعلى أية حال انها مجرد جولة في بعض تلك المساجد الأثرية .

مَسجِد عمْرو بن العَاص

لقد كانت مصر من أوائل الأقطار التي فتحها المسلمون خارج شبه الجزيرة العربية ، إذ تم ذلك بقيادة عمرو بن العاص في عهد الخليفة عمر بن الخطاب عام ١٨ للهجرة . وما أن استقر الوضع بالمسلمين في مصر ، حتى أمر عمرو بتخطيط مدينة الفسطاط واقامة مسجد في وسطها ، وهو الذي يدعى حاليا مسجد عمرو ، وقيل ان مساحته عند انشائه كانت ٣٠ ذراعا في ٥٠ ذراعا وكان له ستة أبواب . كما شهد افتتاحه عدد من صحابة الرسول الكريم ، عليه الصلاة والسلام ، ويقال إن منبرا قد أقيم في المسجد لدى بنائه فأرسل عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يأمره بازالته ، ففعل .

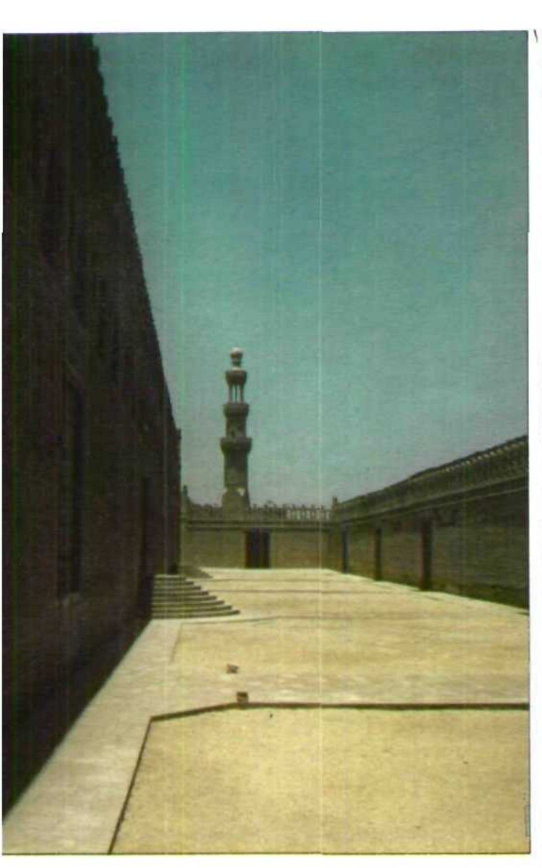
وقد زيد في بناء مسجد عمرو عدة مرات قبل أن يصل إلى سعته الحالية . وكانت الزيادة الأولى في عهد معاوية ابن أبي سفيان . وفي سنة ٩٢ للهجرة أمر الوليد بن عبد الملك بتجديد المسجد تجديدا كاملا وجعلوا له أحد عشر بابا . وبعد ذلك بخمس سنوات تقريبا ، أقيم في وسط الصحن مبنى صغير تعلوه قبة أطلق عليه اسم : بيت المال .

وفي العصر العباسي زيد في المسجد أكثر من مرة ، في عهد أبي العباس وهارون الرشيد . وفي عهد المأمون زيد في مساحته فأصبحت ١١٢,٥ في ١٢٠,٥ مترا وهي مساحته الحالية ، وكان ذلك في عام ٢١٢ هجرية . كما جرى تجديده أيام خمارويه بن أحمد بن طولون عقب الحريق الذي نشب في الجزء الخلفي من المسجد . وكذلك جدد في عهد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٨ هـ . وكانت بعض أجزاء المسجد قد خربت وتهدمت عندما أحرقت مدينة الفسطاط عام ٥٦٤ هـ ، خشية استيلاء الصليبيين عليها . ولدى زيارتنا له في مارس ١٩٨١ م كانت أعمال الصيانة والتجديد قائمة أيضاً .

وعلاوة على اقامة الصلاة والعبادة في مسجد عمرو بن العاص ، كانت تعقد فيه مجالس دينية ، يحضرها الكثيرون

(١) « الأعـلام » لخير الدين الزركلي ، ج/٣ ص/١٠٨ الهامش .

١



٢



١ – منظر جانبي لاحد المساجد القديمة وقد ظهرت مئذ[نته] في مؤخرة الصورة .

٢ – مسجد قديـــم لايزال يحتفظ بنقوشه وقد بدت بعـ[ـض] الأشجار في مدخله .

٣ – مبنى بيت المال يتوسط صحن مسجد عمرو بن العاص

من الناس ويتحدث فيها عدد من العلماء والفقهــاء الأجلاء . كما كانت تعقد سوق تجارية في باحاته .

الجامــع الأزهــر

يذكر المؤرخون أن جوهر الصقلي هو الذي أمر ببناء الجامع الأزهر في القاهرة وكان ذلك في عام ٣٥٩ هـ . وتم انجازه خلال عامين فقط . وفي العصر الفاطمي كانت للأزهر مكانة عالية إلا أن أهميته قد أخذت بالاضمحلال خلال حكم الأيوبيين .

ولقد بدأ التدريس في الجامع الأزهر بعد اقامته بسنوات معدودة – حوالي عام ٣٧٨ هـ . غير أن كثرة بناء المدارس أيام الدولة الأيوبية ورعايتها من قبل أولي الأمر قد اجتذب الكثيرين من طلاب العلوم الشرعية في الأزهر . وفي العصر المملوكي عادت للأزهر أهميته وأصبح له شأن حتى في سياسة الدولة – كما تقول بعض المصادر التاريخية . وبطبيعة الحال كانت مواضيع الدراسة في الأزهر تتناول المواد الدينية الشرعية والفقهية والحديث والأدب والنحو والصرف والبلاغة وعلم الاجتماع وما إلى ذلك . وكان العالم أو المدرّس يجلس في أحد جوانب الجامع ويجلس حوله الدارسون مشكلين دائرة حوله ، ومن ذلك جاءت التسمية « حلقات الدرس » . وظل شأن الأزهر خلال عمره الطويل يتراوح بين مد وجزر حتى تقرر جعله جامعة كاملة في عام ١٩٦١ م ، بالاضافة إلى كونه مكان صلاة وعبادة ، تدرس فيه سائر العلوم الحديثة من طب وهندسة وما إلى ذلك علاوة على الدراسات الإسلامية وأصول الدين والشريعة إلى آخره .

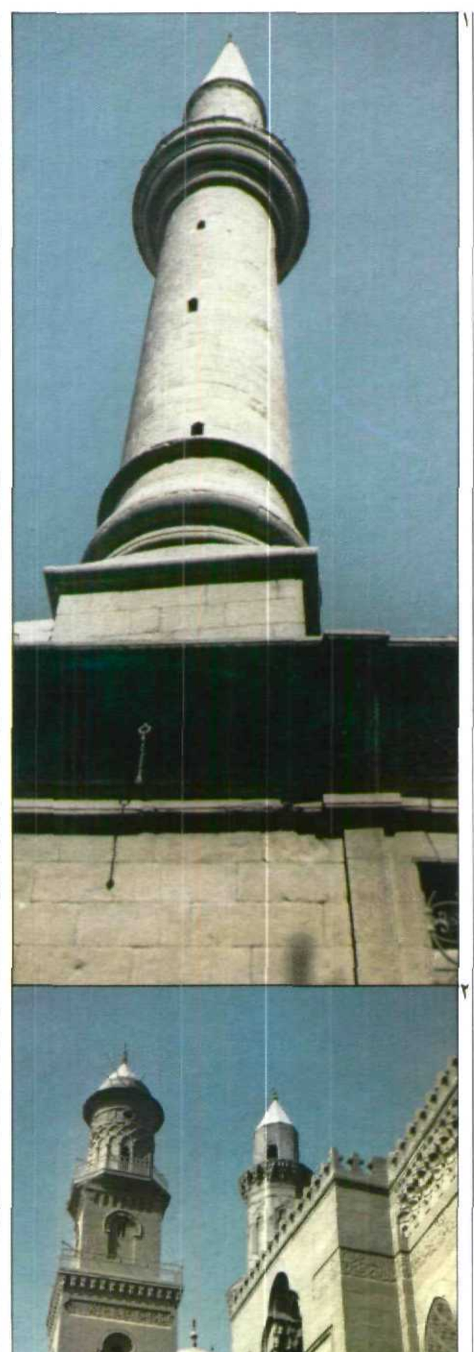
وكغيره من المساجد لم يبق الأزهر على الحال التي بني عليها ، فقد زيد فيه أكثر من مرة حتى أصبحت مساحته اليوم تساوي ضعف ما كانت عليه

لدى انشائه . وقد أقيم بناؤه القديم على شكل أروقة وعقود نقشت واجهاتها بكتابات وزخارف نباتية جميلة . وفي الرواق الغربي للأزهر ، تقوم مئذنة جميلة من الحجر المزخرف كان قد أمر ببنائها السلطان قايتباي سنة ٨٧٣ ه . وإلى اليسار منها ، مئذنة السلطان الغوري وقد أمر ببنائها عام ٩١٥ ه . وأنجزت بعد نحو خمس سنوات ، ولهذه المئذنة قبتان منفصلتان تقومان على حجرتين منفصلتين أيضاً ، لكل منهما سقف مرتفع يقوم على أربعة أقواس ، واحد من كل جانب . وقد كسيت هذه المئذنة بالقيشاني الجميل . وفي العهد العثماني أمر الأمير عبد الرحمن كتخدا بتوسعة المسجد وزاد فيه زيادة كبيرة .

ويوجد في الأزهر عدد من المحاريب ، أحدها محراب المدرسة الاقبغاوية ذو النقوش الجميلة والزخارف البديعة . كما يوجد فيه عدد من الأروقة لاتزال تحتفظ بأسمائها مثل رواق الأتراك ، رواق المغاربة ، اليمنية ، البغدادية ، الصعايدة وغير ذلك من الأسماء التي ربما كانت مخصصة للفئة المسماة باسمها . ومن أشهر الأبواب فيه باب قايتباي والباب العباسي ، وباب المغاربة . أما الباب الرئيسي فمعروف باسم باب المزينين وقد أنشأه الأمير عبد الرحمن كتخدا عام ١١٦٧ ه .

جامع أحمد بن طولون

تم بناء جامع أحمد بن طولون في عام ٢٦٥ ه . بعد أن أنفق في بنائه الأموال الطائلة بالنسبة لتلك الأيام . وقد أقيم المسجد في وسط مدينة القطائع التي اختطها ابن طولون لتكون مركزا له . وجعلت له مئذنة تشبه إلى حد ما الشكل الحلزوني . كما زينت جدرانه ومحرابه بالكثير من النقوش والكتابات الجميلة . وقد أقيم في وسط الساحة





١ ، ٢ – من المآذن ما تقوم على قاعدة مربعة فترتفع طبقة أو اثنتين أو ثلاثا قبل أن تأخذ في الاستدارة .

التي تتوسط أروقة الجامع بناء ذو قبة جميلة تقوم تحتها نافورة فرش ما حولها بالرخام ، كما أمر ابن طولون ببناء مرافق المياه خلف المسجد تنزيها له .

وفي عام ٣٧٦ ه ، احترقت النافورة التي بالجامع ثم أصاب المنطقة التي تحيط به خراب فقل رواده إلا من التجار الغرباء الذين كانوا يأتون البلاد فيقيمون حواليه بدوابهم وتجارتهم .

وفي عهد السلطان حسام الدين المنصوري ، الذي استولى على الحكم عام ٦٩٦ ه . جدّد الجامع تجديدا شاملا ورتب من يقوم بتدريس الفقه فيه كما رتب له من الخدم من يقوم بشأنه ، وجعل لهم مخصصات ، أو رواتب معلومة .

وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أنشىء بالجامع منارتان ، ثم أقيم به رواق وجددت فيه مرافق المياه . ثم أصابه إهمال كبير على مر الزمن .

وقد أقيم جامع ابن طولون على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه نحو ١٦٢ مترا ، كما أن شكل الصحن ، بداخله ، مربع أيضاً يبلغ طول ضلعه نحو ٩٢ مترا . وكان به أصلا ٢١ بابا ثم أضيف اليه عدة أبواب أخر . ويعتبر جامع ابن طولون من الجوامع الأثرية ذات القيمة التاريخية والمعمارية لما يحويه من النقوش والزركشات الجميلة . كما أن فيه لوحة تذكارية من الحجر الصلب كتب في أولها آية الكرسي ، كما ذكر في آخرها تاريخ الجامع وهو ، شهر رمضان سنة خمس وستين ومائتين للهجرة .

مسجد الصالح طلائع

يقع هذا المسجد على مقربة من باب زويلة ، وقد بنى في حوالي منتصف القرن السادس الهجري ، غير أن صلاة الجمعة لم تقم فيه إلا بعد نحو قرن من الزمان ثم انه تهدّم في مطلع

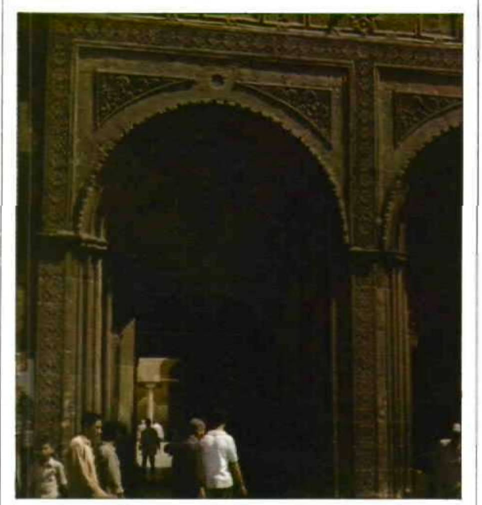
القرن الثامن الهجري عندما حدث الزلزال سنة ٧٠٢ هـ . وأعيد بناؤه بعد ذلك .

ومسجد الصالح مستطيل الشكل تبلغ مساحته ١٥٢٢ مترا مربعا ، منها ٤٥٤ مترا مربعا مساحة الصحن الذي يتوسطه . والمسجد عبارة عن مجموعة من الأروقة أو العقود التي تقوم على أعمدة من الرخام . ويوجد به من ناحية القبلة ثلاثة أروقة كتبت عليها آيات قرآنية بالخط الكوفي . كما أن النوافذ الكائنة بتلك الجهة مزخرفة بنقوش من الجص . وقبل حدوث الزلزال بثلاثة أعوام ، قام الأمير « بكتمر الجوكندار » بعمارته وتجديده ، ثم جدده عبد الوهاب العيني عام ٨٤٤ هـ .

مسجد الحسين

ربما تكون نواة المسجد قد بنيت عام ٥٤٩ هـ . ولما جاء صلاح الدين الأيوبي أقام في المكان مدرسة . وفي عهد الملك الصالح نجم الدين ، بني رواق آخر وخصص كذلك للتدريس . وفي عام ٦٤٠ هـ احترق البناء وأعيد ترميمه ، وفي سنة ٦٨٤ هـ أمر الملك الناصر محمد ابن قلاوون بتوسعة المسجد وبناء بيوت للعلماء والفقهاء العاملين فيه . وخلال العصر العثماني ، مرّ المسجد بعمليات من الترميم والصيانة والزيادة وتجديد السجاجيد والبسط . وفي الخمسينات من القرن الميلادي الحالي زيد في مساحته أكثر من الضعف فأصبحت ٣٣٤٠ مترا مربعا ، وكانت من قبل نحو ١٥٠٠ متر مربع ، وقد تمت أعمال التجديد والزيادة عام ١٩٦٣ م .

وقد اهتم المهندسون الذين أشرفوا على أعمال الزيادة لتكون مماثلة للمباني القديمة وخاصة الجانب الخارجي من الجدران التي يبلغ سمكها نحو ٨٠ سنتيمترا . كما أقيمت في الجانب الشرقي



اهتم المعماري المسلم بتزيين الأبواب والمحاريب بنقوش جميلة ذات أشكال متداخلة ببعضها البعض . تصوير : عبد الله الدبيس

مكتبة خاصة بالمسجد وكذلك مبنى يتألف من طابقين ليكون بمثابة مكاتب للقائمين على إدارته .

أما قبة المسجد ، وهي مستطيلة الشكل قليلا ، فقد أقيمت في حوالي منتصف القرن التاسع عشر (١٨٥٠ م) كما تقول بعض المصادر . وتقوم القبة على أقواس ذات نقوش وزخارف رائعة . ويقوم سقف المسجد على ٤٤ عمودا من الرخام ، وهو مزين بزخارف ونقوش نباتية جميلة . أما منبر المسجد فيقال بأنه كان سابقا لجامع أزبك وقد نقل منه عندما تهدم ، وأقيم في مسجد الحسين□

مئذنة ذات ثلاث طبقات ، الأولى منها مضلعة ، وفي أعلى المئذنة قبة تقوم على قاعدة أقل قطرا من القبة .

مجال العقل في التشريع الإسلامي

بقلم : د . هاشم ياغي / الجامعة الأردنية

مجال العقل في التشريع لا يختلف فيه اثنان ، لأن التشريع في ضبطه علاقات الناس يعتمد في تفهم هذه العلاقات ثم في ضبطها اعتمادا واسعا على العقل ، ونشاط رجال القانون في مختلف العصور يقوم أول ما يقوم على النشاط العقلي ، وإن كان في بعض العصور قد عرج على شيء من النشاط الوجداني في عرض قضاياه عرضا أدبيا وجدانيا .

ولكن هذا الأمر على وضوحه يثير بعض التساؤل حين نتناول التشريع الإسلامي خاصة أو أي تشريع سماوي الينبوع عامة . وقد يذكي هذا التساؤل ما يعرفه البعض من موقف بعض المذاهب الإسلامية ، كالظاهرية مثلا ، واستهجانها الرأي الذي هو ربيب العقل استهجانا واسعا ، جريا وراء منهجهم في الاكتفاء بظاهر القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

ولكني قبل أن أمضي في حديثي هذا أود أن أشير إلى أن مكتبة الفقه الإسلامي عبر العصور الإسلامية قد تضخمت ونمت تضخما لافتا يفوق عددا من الجوانب الأخرى في المكتبة الإسلامية ، والتراث الإسلامي الواسع ، ومازال المسلمون يطمحون إلى أن تصبح مكتبة التشريع الإسلامي أو الفقه الإسلامي غنية بأخصب الوسائل الحديثة في تناول مشكلات المسلمين الحديثة تناولا لا يقل عن أوسع ألوان التناول الأخرى في عالم التشريع في النصف الثاني من القرن العشرين .

وما أراني في حاجة إلى الاتكاء كثيرا على إجماع المسلمين عبر عصورهم على بناء صرح الفقه أو التشريع لديهم بناء مطردا مستعينين في ذلك بعقول علمائهم ومجتهديهم ، إذ أن مجرد الإشارة في هذا المجال تكفي فيما أحسب .

وقد يكون البعض قد ألم بشيء من خلاف العلماء والفقهاء المسلمين والمؤلفين في هذا المجال ، فرأي كثير من الآراء ، سواء مما هي على الجانب العقلي في التشريع أو مما هي مع هذا الجانب ، ولكن الأمر لا يعدو في نظري الحيوية القوية في البحث بها ، وهي من علامات العافية والصحة الموفورة في التفكير ، ولعل من أطرف هذه الآراء المتناقشة ما عرض له العالم المشهور ابن القيم (١) في كتابه « أعلام الموقعين عن رب العالمين » ، وكذلك ما عرض له الإمام الغزالي قبله في كتابه المشهور « المستصفى » وبخاصة في جزئه الثاني ، فقد عرض كل منهما لمناقشة الآراء حول الجانب العقلي في التشريع الإسلامي .

ويحسن أن نعتمد على رأي من آراء ابن قيم الجوزية في كتابه « أعلام الموقعين عن رب العالمين » في جانب العقل أو الاجتهاد ، وبخاصة إذا علمنا أن هذا الاجتهاد الذي يشير إليه ابن القيم كان لدى صحابة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، زمن الرسول نفسه ، أي زمن اتصال السماء بالأرض .. قال ابن القيم :

« وقد اجتهد الصحابة في زمن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في كثير من الأحكام ولم يعنفهم ، كما أمرهم يوم الأحزاب أن يصلّوا العصر في بني قريظة ، فاجتهد بعضهم وصلاها في الطريق وقال : لم يرد منا التأخير ، وإنما أراد سرعة النهوض ، فنظروا إلى المعنى .. واجتهد آخرون وأخروها إلى بني قريظة ، فصلوها ليلا — نظروا إلى اللفظ ، وهؤلاء سلف أهل الظاهر ، وأولئك سلف أصحاب المعاني والقياس » .

ولهذا النص الذي أوردته من كتاب ابن القيم المذكور أهمية في الدلالات لعل ألصقها بحديثنا اليوم دلالته على ما أتيح للعقل أن يفعل فعله في فهم نص صريح في عبادة من أهم العبادات عند المسلمين . وقد أتيح للعقل هذا المجال في هذا الميدان ، وهو عقل صحابة رسول الله ، وهم يتحسسون التقاء السماء المشرعة بالأرض في وحي يوحي للنبي صلوات الله عليه بينهم .

ولقد ارتضى رسول الله ذلك من أصحابه .. والأمثلة موفورة على مثل هذا الموقف من المواقف التي اجتهد فيها صحابة رسول الله في زمنه .

وأحسب أن هذا الأمر الذي نعرفه من الناحية التاريخية الواقعية شيء طبيعي ، لأن الهدف من أي تشريع هو أن يفي بحاجات أصيلة تنبثق من أحوال أي مجتمع ينبت فيه ذلك التشريع . ولأن السماء في الدين الإسلامي على رعايتها البالغة لمجتمع المسلمين الناشيء زمن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كانت تهدف إلى أن تربي المسلمين على يدي الرسول العظيم تربية مثمرة تستخرج كوامن الطاقة البشرية الصالحة فيهم . فجاء في ختام هذه التربية وقبيل وفاة الرسول باحدى وثمانين ليلة وفي يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة أي في حجة الوداع في الآية الكريمة التي ختم بها القرآن الكريم : **« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام دينا »** .

ولعل هذا الهدف هو الذي يسر على هذا المجتمع الإسلامي الناشيء زمن الرسول ، صلوات الله عليه ، فأنزل القرآن الكريم منجما وحسب الحوادث في مدة قدرها اثنتان وعشرون سنة وشهران واثنان وعشرون يوما وهي من ليلة اليوم السابع عشر من رمضان

للسنة الحادية والأربعين من ميلاد الرسول ، عليه صلوات الله ، حيث أوحي إليه من غار حراء الذي كان يتحنث فيه أول ما أوحي :

« **بسم الله الرحمن الرحيم .. اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم** » .

إلى تاسع ذي الحجة يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة ، والثالثة والستين من ميلاد الرسول حيث أوحي إليه بآخر آية وهي التي ذكرناها آنفا « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** » .

ولعل هذا اللون من التربية الكريمة لجماعة المسلمين الأولين زمن رسول الله هي التي أتاحت لهم احترام عقولهم واستقلالها واحترام الجانب الإنساني فيهم وذلك بعد أن قامت هذه التربية الخصبة بأهم ما تعنى به أنماط التربية الأصلية . فقد عنيت السماء أول ما عنيت حين اتصلت بأرض الجزيرة عبر رسالة رسول الله ، صلوات الله عليه ، بالدعوة الفارقة ، أي بالفرقان الذي فرق بين عهدين متقابلين ، عهد ما قبل الرسالة المحمدية ، وعهد الرسالة ، ومن هنا ندرك أهمية دور مكة في الرسالة المحمدية ، وندرك كذلك أهميتها الحاسمة في شخصية التشريع الإسلامي ، فدور مكة هو الذي عمق القيم الإسلامية الرئيسية في نفوس أتباعه ، وهي القيم التي فرقت بين عهد الرسالة وبين العهد الجاهلي السابق لها ، لقد اهتم دور مكة باقناع الذين جذبتهم الدعوة بالفيصل من قيم الإسلام التي بدونها لا يكون المرء مسلما ، اهتم بالتوحيد وبكل ما يتصل بالتوحيد من قيم ساطعة توضح أهمية الإيمان بالرسل بعد الله سبحانه ، وبالكتاب وبالحياة الآخرة وبيوم القيامة وما فيه من حساب بالمثوبة والعقوبة لينضبط بذلك سلوك المسلمين في حياتهم الدنيا . والاقناع في الدعوة في مكة أساس مهم من أسس احترام عقول الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإسلام ، وكان هذا الاقناع يعني العناية الفائقة بالخطوط العريضة في دعوة الإسلام ، وفي هذا الذي يميز المسلم من غير المسلم في القيم . وقد أتاح هذا كله للمسلمين مناخا عاما من القيم التي يمكن الاعتماد عليها فيما بعد ، كي يميزوا بين ما كانوا هم أنفسهم عليه من قيم ، وما صاروا عليه بعد اسلامهم ، وكي يميزوا كذلك بين ما ينشق مع روح اسلامهم وما هو من روح الوثنيين من حولهم .

وقد كان من الحكمة البالغة في القرآن أن يتأخر تناول التشريع المفصل أو ما هو كالمفصل في أمور المسلمين حتى صاروا في المدينة وهم يتمتعون بسمات الإسلام وقيمه ومميزاته ومناخه العام . فقد استقرت النفوس المسلمة على ما بلور شخصيتها ، وأخذت تحيا في المدينة حياة ذات سمات يمكن أن نطلق عليها سمات الدولة . ومن ثم انبثقت الحاجة إلى شرائع تفي بمطامح هذه الدولة الفتية في ضبط حياة أفرادها وفق قيم الدين الجديد .

وقد أدرك المسلمون الأولون في هذه الدولة الناشئة زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن الخط الكبير في أمور دينهم وهو ما يتصل بالتوحيد والعبادات قد تكفلت بتخطيطه السماء في الدعوة التي حملها النبي وبشر بها ، وأدرك المسلمون الأولون كذلك أن النبي ، صلوات الله عليه ، قد أخذ على عاتقه إتمام ما خططته السماء في هذا المجال ، سواء أكان هذا الاتمام بتفصيل ما اجمل أو باكمال ما رآه النبي أنه يكمل تخطيط السماء ، أو بتوكيد ما ارتأى توكيده . ومن ثم أخذ رسول الله على عاتقه تعليم المسلمين كثيرا من عباداتهم تعليما عمليا . ولم يكن في هذا الخط الكبير الذي خططته السماء وأتمه النبي في مجال التوحيد والعبادات ما يتطلب من المسلمين الأولين غير الفهم في التطبيق والتنفيذ ، إذ لا مجال في ذلك للاجتهاد أو الرأي أو اعمال العقل في استنباط ، وقد فهم المسلمون المتأخرون عبر العصور التي تلت حياة رسول الله أن هذا الميدان ميدان معروف للتطبيق والتنفيذ متواتر بين المسلمين عبر أجيالهم ، ولا مجال فيه لاجتهاد ، ولا مجال فيه للبحث وراء تعليل أو وقوف على حكمة .

أما أمور الحياة الأخرى في المعاملات وهي ما هي عليه من تشعب فقد كانت هي المجال الفسيح للاجتهاد والرأي على اختلاف أشكاله وطرائقه ووسائله . فأمور الحياة أو المعاملات هي موضوع التشريع أو الفقه عند المسلمين .

ولعل احترام الإسلام للعقل البشري المهتدي إلى نوره هو الذي اعتمد كثيرا في جذب المسلمين للدعوة ، كما أشرنا من قبل ، على العقل بالاقناع ، ثم اكتفى بشخصية المسلم المتشرب قيم الإسلام وروحه في مواجهة الحياة وأمورها . ولعل مثل هذه التربية السليمة هي التي طمنت السماء والرسول العظيم على سلوك المسلمين ومنطلقهم في المعاملة فلم تنزل تبعا لذلك غير ما يقارب خمسمائة آية فقط من آيات الاحكام نزلت متفرقة بين آي القرآن الكريم . ولم يفرد لها مكان تشريعي خاص بها . إذ أن الشخصية التي اعتمدت الإسلام بالاقتناع قادرة بهذه الأضواء الساطعة التي حوتها هذه الآيات القليلة نسبيا من آيات الاحكام ، وبرعاية من الرسول الأعظم وسننه على ضبط أمور حياتها مهما تتشعب .

ونحن نعلم أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال لمعاذ بن جبل ، رضي الله عنه ، حين بعثه إلى اليمن قاضيا : بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي . فقال النبي ، صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يحبه الله ورسوله » وروي أن النبي ، صلوات الله عليه ، قال لمعاذ وأبي موسى الأشعري ، وقد أنفذهما إلى اليمن : بم تقضيان ؟ فقالا : إن لم نجد الحكم في الكتاب ولا في السنة قسنا الأمر بالأمر ، فما كان أقرب إلى الحق عملنا به .

ونحن لا ندهش حين نرى صحابة رسول الله رضوان الله عليهم يدركون والسماء ترعاهم وتوحي للرسول بالقرآن الكريم ، والرسول نفسه يرعاهم ويتعهدهم بسنته كذلك إلى جانب القرآن الكريم ، نحن لا ندهش حين نرى كبار الصحابة هؤلاء يعلمون

أن الحياة أوسع من أن تحد جزئيات أحداثها وتحصر في حالات وقواعد بعينها ، ومن ثم نطمئن إلى هذا المنهج الذي سلكوه في حياة الرسول ، واستعانوا به حتى سلكوا على غراره بعد وفاة الرسول .

فإذا كان المسلمون قد لمسوا حاجتهم للرأي أو العقل والاجتهاد أو القياس في عهد كانت السماء متصلة بأرضهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، لايزال بين ظهرانيهم بسنته فكيف بحاجة المسلمين بعد توقف السماء عن اتصالها بالأرض أي يوم توقف نزول الوحي وبعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ وتوقف ينابيع السنة وقد اخذت حياة المسلمين تتطور وتتعقد في مضمار الحضارة ، ويلاقون من المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية والثقافية وغيرها من أمور الحياة ، سواء أكان ذلك في دار هجرتهم وبلاد العرب أم كان ذلك في بلاد الفتوح الإسلامية ، ولدى اختلاطهم بالأمم والشعوب والثقافات والأحوال المختلفة في جميع ميادين الحياة لدى هذه الأمم والشعوب .

فإذا كانت المجتمعات لا تثبت على حال واحدة بل تتغير بتغير الزمن والأحداث والظروف فإن من الطبيعي أن نتوقع مطامح الناس لتطور تشريعهم ، وتطلعهم إلى كل ما يفي بأغراضهم ومصالحهم ، وفق الأصول الاسمية المرنة ذات البذور القادرة على النماء .

لقد أدرك الفقهاء المسلمون فكرة التطور في إنماء هذه الأحكام التشريعية بتطور حاجاتهم ، وفي هذا فسح المجال واسعا أمام العقل .

غير أنه يحسن بنا ألا ننسى أن المجال الواسع الذي أعطي للعقل في التشريع الإسلامي عبر العصور إنما اعطي له في رقعة المعاملات دون العبادات كما ألمحنا من قبل ، والعقل الذي ارتاح للإفادة منه عند المسلمين في تشريعهم إنما هو العقل الذي يدخل على الأحداث والقضايا والمشكلات مسلما ، ومن هنا كان ينظر بشيء من الريبة للعقل الذي يدخل إلى القضايا والحوادث والمشكلات دخولا مطلقا غير مقيد بأي من قيود المسلمين ، ومن هنا كذلك كانت بعض التيارات الإسلامية تناهض الفلسفة المحضة التي تريد أن تتناول القضايا والحوادث والمشكلات في المجتمع الإسلامي تناولا فلسفيا غير متقيد بأي من قيود يتطلبها الفقهاء من المسلمين ، ومن ثم كان هناك بون واسع بين منهج الفلاسفة ومنهج الفقهاء .

ولهذا كله كان منهج الفقهاء ينحصر في استخراج الأحكام والشرائع من النصوص التشريعية في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، ومن أدلة شرعية أخرى ، وقد اعتبر الفقهاء نصوص القرآن التشريعية ونصوص السنة التشريعية والأدلة الأخرى التشريعية مصادر التشريع في المجتمعات الإسلامية .

ومن هنا كانت ينابيع التشريع عند الفقهاء المسلمين أربعة قابلة لأن تتفرع وهذه الينابيع كما أشرنا قبل قليل هي الكتاب ، والسنة ، والقياس ، والإجماع .

وقد يتبادر للأذهان أن ليس في المصدرين الأول والثاني وهما الكتاب والسنة مجال للعقل .

ولكن من يتدبر الأمر يجد أن في هذين المصدرين مجالا واسعا . فنحن نعلم أن الله سبحانه لحكمة بالغة لم ينص على كل أحكامه في مواد تشريعية جامعة ، بل نص على أحكام بعض الوقائع بنصوص في القرآن أو على لسان رسوله ، وسكت عن النص على أحكام أكثر الوقائع ولكنه مع ذلك أوجد إمارات عليها ومهد طرقا توصل إليها ، ليتوصل إليها المجتهدون باجتهادهم . والمواقعة التي دل على حكمها نص قطعي في وروده ، وقطعي في دلالته ، بمعنى أنه لا مجال للعقل أن يدرك منه إلا حكما بعينه ، والواجب اتباع حكم النص فيهـا بعينه . فلا مجال للاجتهاد في أن اقامة الصلاة فريضة .

ولهذا اشتهر قول الأصوليين : « لا صاغ للاجتهاد فيما فيه نص قطعي صريح » . أما الواقعة التي دل على حكمها نص ظني الدلالة ، بمعنى أن النص يحتمل الدلالة على حكمين أو أكثر ففيها اجتهاد ، ولكنه اجتهاد في حدود فهم المراد من النص ، وترجيح أحد المعاني ، كما في قوله تعالى : « **وامسحوا برؤوسكم** » إذ يحتمل أن تكون الباء للالتصاق ، فالمفروض مسح الرأس كله ، وأن تكون الباء للتبعيض ، فالمفروض مسح بعض الرأس لا كله .

والواقعة التي لم يدل على حكمها نص ، ولكن اتفق المجتهدون على حكم فيها ، في عصر من العصور الإسلامية ، لا مجال للاجتهاد فيها كذلك . غير أنه يحسن ألا يغيب عن بالنا أن اتفاق المجتهدين لابد أنه قد سبقه اجتهاد . ولذا كان من الحكمة ألا ينقص اجتهاد مجموعة من ألوان الاجتهاد التي اتفقت ذات يوم ، وإن كان هذا الأمر والحق يقال — غير مبتوت فيه بتا حاسما بين فقهاء المسلمين .

أما الواقعة التي لم يدل على حكمها نص ، ولم ينعقد على حكمها إجماع ففيها مجال الاجتهاد بالرأي .

وهي في كل زمن وفي أية بيئة مجال للاجتهاد في أهل الاجتهاد ، ولا يمنع اجتهاد فيها سابق من اجتهاد لاحق .

ولعل من خير ما يدل على ما نحن بصدده ما روي من أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، لقي رجلا فسأله «من أين جئت؟ فقال الرجل من عند علي ، وقد قضى بيننا بكذا في خصومة هي كذا ، فقال عمر : لو كنت أنا الذي يقضي فيها لقضيت فيها بخلاف هذا القضاء . فقال الرجل لعمر : وما يمنعك وأنت أمير المؤمنين ؟ قال عمر : لو كنت اردك إلى كتاب الله أو سنة رسوله لفعلت ، ولكني اردك إلى رأيي ، والرأي مشترك » .

والذي يتبع مختلف المؤلفات التشريعية في الفقه الإسلامي يلاحظ أن طبيعة النصوص التشريعية في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فيها من المرونة ما أتاحت للعقول المتطورة والمختلفة أن تتناول هذه النصوص في سعة تناولا عرفه الأجداد في المنطوق وفي المفهوم معا . أما منطوق النصوص فقد قسموا الدلالة فيه إلى دلالة عبارة ، ودلالة إشارة ، وأما مفهوم النصوص فقد قسموه إلى مفهوم موافق ، ومفهوم مخالف .

وبذلك أتاحت النصوص المرنة للعقل في هذه الدلالات الأربع ، بحيث يثمر ثمرات ملموسة حتى فيما هو ثابت .

قال الله تعالى في سورة البقرة في بيان من تجب عليه نفقة الوالدات المرضعات : « **وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف** » فأستدل بعبارة هذه الآية على حكم ، وهو نفقة الوالدات والمرضعات تجب على والد أولادهن ، واستدل باشارتها على حكم ثان ، وهو نفقة الأولاد على أبيهم وحده لا تشاركه فيه أمهم ولا غيرها . وهذا الحكم يشير إليه تعبير الآية بأنهم مولودون له ، أي هو مختص بهم . واستدل بمفهوم موافقتها على حكم ثالث ، وهو أن أجر علاج الوالدات وثمن أدويتهن على والد أولادهن ، لأن حاجة الوالدة إلى العلاج والأدوية أشد من حاجتها إلى طعامها وكسوتها ، وهو إنما وجب عليه طعامها وكسوتها سدا لحاجتها .

وهكذا نرى أن طبيعة النصوص على ثباتها لم تحل دون انطلاق العقل فيها فإذا أضفنا إلى هذا ما يتصل بالنصوص مما قد ألمحنا إليه فيما سبق من حديث وبأخصه هذا الجانب الذي يتناول معاملات الناس في مجتمعاتهم من النصوص التشريعية . فإن هذا الجانب مصبوغ بصبغة عامة وتخطيط عريض . ولذلك تدخلت الأحوال المتطورة والمصالح المتطورة والعقول المتطورة في هذا الميدان فطورت التشريع أو هذا الجانب من التشريع .

لقد وقفنا وقفة فيها شيء من التأني عند المجال الذي وجده العقل في النصوص التشريعية ، لأن هذا المجال مظنة التساؤل فيما يتبادر للأذهان .

أما الصلة التي ربطت بين واقع الحياة والأحكام التشريعية عند المسلمين فقد فتحت باب القياس على مصراعيه ، والقياس هو المجال الفسيح للعقل ونشاطه .

وللقياس أشكال مختلفة جالت فيها عقول الفقهاء على ميولهم في هذا النشاط . وقد أحس الفقهاء بحقيقة تكاد تكون من أوضح البداثة في حياة المجتمعات وهي أن حوادث الحياة أوسع من الأحكام المنصوص عليها في التشريع وغير المنصوص عليها كذلك . فازاء القضايا التشريعية الجديدة التي لم يكن فيها أحكام نصية في القرآن الكريم ولا في السنة ولم يكن فيها إجماع لذلك ، اضطر الفقهاء إلى تحكيم العقل ، وإعمال الرأي والمنطق لحل هذه القضايا الجديدة بالاجتهاد والقياس أي قياس واقعة جديدة على واقعة قديمة وقد أعتمد الفقهاء في القياس على أساس كبير في التشريع الإسلامي هو أن الأحكام الشرعية مبنية على مقاصد ومصالح ، وهذه المقاصد والمصالح هي السبب في وجود هذه الأحكام فكان الفقهاء بمعرفتهم علة حكم منصوص عليه في مسألة من المسائل يقيسون مسألة أخرى على السابقة إذا كان في امكانهم توضيح انهما تتفقان في العلة . فقتل الوارث مورثه مانع من الإرث بالحديث الشريف ، لا يرث القاتل ، وقيس به قتل الموصي له للموصى ، وقتل الموقوف عليه للواقف ، لتساويها في أن القتل مظنة استعجال الشيء قبل أوانه ، والانتفاع بالإجرام وقد تفرع القياس لدى بعض المذاهب السنية ، فعمد الحنفيون والمالكيون والحنابلة إلى فرع آخر من فروع القياس أطلقوا عليه الاستحسان وخلاصته في إصلاح الأصوليين القائلين به : العدول من حكم اقتضاه دليل شرعي في واقعة إلى حكم آخر فيها لدليل شرعي اقتضى هذا العدول ، وهذا الدليل الشرعي الذي اقتضى العدول هو سند الاستحسان .

وإذن فالاستحسان هو ترجيح دليل على دليل يعارضه بمرجح معتبر شرعا .

ومن أمثلته : قال فقهاء الحنفية مثلا .. وان حقوق الري والصرف والمرور لا تدخل ووقف الأرض الزراعية تبعا ، بدون ذكرها قياسا ، وتدخل استحسانا . وذلك لأن القياس الظاهر هو قياس الوقف على البيع ، بجامع أن البيع يخرج المبيع من ملك البائع ، والوقف يخرج الموقوف من ملك الواقف وفي بيع الأرض الزراعية لا تدخل حقوق ريها وصرفها والمرور إليها بدون ذكرها ، فكذلك في وقفها . لكن القياس الخفي قياس الوقف على إجارة بجامع أن المقصود لكل منهما الانتفاع بريع العين لا تملك رقبتها . وفي إجارة الأرض الزراعية تدخل حقوق ريها وصرفها والمرور بدون ذكرها ، فكذلك في وقفها .

وهذا العدول عن مقتضى القياس الظاهر إلى مقتضى القياس الخفي هو الاستحسان ووجهه أي الدليل الذي نبني عليه هذا العدول ، هو ان المقصود من الوقف هو انتفاع الموقوف عليه بريع الموقوف لا تملك رقبته . والانتفاع بريع الأرض الزراعية لا يتحقق إلا بريها وصرفها والمرور إليها فالقياس الذي يقتضي دخول هذه الحقول في وقفها بدون ذكرها أقوى أثرا وأرجح من ناحية أن يحقق المقصود من الوقف .

وهناك لون آخر من القياس استطاعت عقول بعض الفقهاء أن تجد فيه مجالا خصبا للعمل ، وهو الاستصلاح . وهو في عرف الأصوليين تشريع الحكم في واقعة لم يرد فيها نص ولا إجماع .

ويعتمد الاستصلاح على مراعاة مصلحة مرسلة أي مطلقة ، بمعنى أنها مصلحة لم يرد عن الشارع دليل لاعتبارها أو لإلغائها .

وإذن فالأصل في هذا المصدر التشريعي يقوم على مصالح الناس . فقد اتفق الأئمة في المذاهب المختلفة على أن الأصل في قسم العبادات هو التعبد بمقتضى أوامر الشريعة الإسلامية وأن أحكام العبادات معروفة بأدلة الشرع واتفقوا أيضاً ، ماعدا الظاهرية ، على أن قسم المعاملات معقول المعنى ، وأنه مبني على مصالح الناس ومنافعهم ومع ذلك نجد الإمام الشافعي لا يأخذ بالاستصلاح ، ولا بالاستحسان ، وكذلك الغزالي يرفض الأخذ بالاستصلاح ، ولكن المالكية والحنابلة يأخذون به ، وكذلك الحنفية في رأي بعض الباحثين .

والمصالح إذا بين الشرع بالنص أو بالإجماع أو بالقياس اعتبارها أو بطلانها وجب اتباعه ، ولكنه إذا سكت عنها ، أمكن الفقهاء أن يتخذوا التعليل بالمصلحة دليلا من الأدلة الشرعية . وقد قال بجواز ذلك الإمام مالك ، واسمى هذا الدليل المصالح المرسلة . ومن أمثلة الاستصلاح جمع الصحابة القرآن في مصحف واحد ، وتدوين الدواوين □



اليد السفلى

تأليف : د. محمد عبده يماني

مراجعة : بكر عباس / الظهران

تضم هذه المجموعة قصتين طويلتين : الأولى « اليد السفلى » والثانية « مشرد بلا خطيئة » . وكان يمكن أن تنشر كل منهما في كتاب على حدة . فلماذا اختار المؤلف أن يجمعهما في كتاب واحد ؟ هذا سؤال سأحاول الإجابة عنه فيما بعد .

أما القصة الأولى فهي عن طفل نقله أبوه من قرية صغيرة ليعمل أجيرا في مكة المكرمة علّه يكون عونا لأسرته في معاشها . وبعد بداية غير موفقة انتقل للخدمة في بيت الشيخ عبد الحميد ، وهو رجل طيب صالح تزقزق العصافير على أشجاره ويختلف طلاب العلم إلى بيته . فأحسن معاملته وألحقه بمدرسة ليلية حتى اجتاز المرحلة الابتدائية ، وبعدها ألحقه بالمدرسة الثانوية ليدرس نهارا ويؤدي أعماله المنزلية ليلا . وما أن اجتاز المرحلة الثانوية حتى دبر له بعثة لدراسة الطب في القاهرة حيث بقي سبع سنوات لا يفكر في قضاء عطلة واحدة في وطنه لأنه « وهب نفسه كليا للدراسة والتحصيل » . وقد تهيج في نفسه بين الحين والحين عاطفة نحو عزيزة ابنة الشيخ عبد الحميد فيكبتها وفاء له ويأسا من تحقيق حلم يعده بعيدا . وفي تلك السنوات السبع قضى الشيخ عبد الحميد وزوجته الفاضلة نحبهما . وما أن سمع بوفاة الشيخ حتى قرر العودة ليكون بجانب الأسرة في محنتها ، فوجد عزيزة في المستشفى تكابد داء أعيى

الطبيب دواوه ، كما أعطيت قديما علة عروة بن حزام عراف اليمامة وعراف نجد . وأخيرا يعلم أن وجدها به كوجده بها ويتزوجان ، وتعود الأطيار تزقزق في حديقة بيت الشيخ عبد الحميد ويعود طلبة العلم ينتجعونه كما كانوا أيام صاحبه الأول .

ولابد أن القارىء يلحظ شبها — رغم التفاوت — بين « اليد السفلى » و « ثمن التضحية » بعد ابتعاث البطلين إلى القاهرة . فكلاهما اسمه أحمد ويبتعث إلى القاهرة لدراسة الطب ، وكلاهما ينهمك في دراسته ليتخرج في أقصر مدة ، وكلاهما يثور في نفسه صراع عاطفي يخمده بالتعقل والمنطق ، وكلاهما يموت والد محبوبته وهو في المرحلة الأخيرة من دراسته ، وكلاهما يعود ليجد المحبوبة المعلنة أو المكتومة مسجاة على فراش المرض فيكون مجيئه الدواء الشافي من الصدمة النفسية ، ومن بعدها ينتهي وزوجه إلى السعادة التي أملها طوال حياته .

وهناك عنصر آخر من التشابه بين القصتين ، ولعله أقوى من تماثل الأحداث ، وهو ما أسميته في قصة الدمنهوري «غيبة الصراع » (١) ، وان اختلفت الأسباب والدوافع . فالدمنهوري يصور تغيرا في بنية المجتمع ، ولكنه يأتي هونا وبخطى وئيدة ثابتة ، فيتلقاه المتخوفون منه بالرضى والقبول . وبطل « اليد السفلى » يصعد السلم بخطوات ثابتة لا تعثر فيها ولا خشية عليه فيها من سقوط . وقصته حكاية فرد بدأ من أسفل السلم فكان لكل خطوة خطاها ثمرتها العاجلة حتى وصل القمة فوجد الثمر طيبا ووفيرا . أما ما ثار في نفسه من « صراع » لكونه « يداً سفلى » وعزيزة « يداً عليا » فهو قائم على مغالطة ووهم ، ولابد للمغالطة من أن تصحح ولابد للوهم أن ينجلي . ومن ثم فان القارىء لا يخشى عليه من هذا الصراع لأنه يدرك النهاية قبل حلولها . ويزيد من الاطمئنان عليه كونه اختار لوصف حالته أنه « يد سفلى » وهي عبارة سلخها من سياقها في الحديث الشريف « اليد العليا خير من اليد السفلى ، واليد العليا المنفقة واليد السفلى السائلة » ، وحملها على غير مدلولها فيه ربما لأن معظم روايات الحديث تقف عند « اليد العليا خير من اليد السفلى » فأصبحت المغالطة واضحة سهلة التصحيح . فهو إنما كان يعمل في بيت الشيخ عبد الحميد ويأكل من كسب يده ، « وما أكل أحد طعاما قط خيرا من كسب يده » . ومن هنا لم تجد داده جمعة صعوبة في تبديد وهمه ، فبينت له أن اليد السفلى هي الذين يسألون الناس الحافا ، وأن النبي ، عليه السلام ، كان يعمل لخديجة رضي الله عنها ثم تزوجها . أما كيف فاتت هذه الحقائق على الشاب المتعلم وادركتها دادة جمعة فأمر لا أعلق عليه . ولو أنه اختار بدلا من ذلك مفهوم الأجير والسيد لكان الحل أصعب ، أو لو أن عزيزة هي التي ابتدأت من هذا المنطلق لكان الأمر عسيرا أو مستغلقا ، ولاتجهت القصة وجهة أخرى . صحيح أن الإسلام ينكر هذا المفهوم الطبقي ولا يقبله ، وأن لنا أسوة حسنة في رسول الله وخديجه ، وفي زيد بن حارثة وزينب بنت جحش ، ولكن قد تتدخل هنا جاهلية الطبقية وتطغى على ما سواها لأنها لا تخضع للمنطق السليم ولا تفهم قيما أعلى من قيمها . غير أن هذا كان يمكن أن يدخل صراعا إلى القصة تكون نهايته حلا لمشكلة اجتماعية . وأنا لا أقول لكاتب كيف يكتب ، ولا شأن لي بذلك . والكاتب هنا لم يهدف إلى شيء من هذا ولا هو من غايته . فهو إنما يكتب قصة ذات مغزى واضح لهداية الشباب بعامة ، وهو أن من يكافح مخلصا يدرك ثمرة كفاحه ، وأن العلم خير سبيل للارتقاء في سلم الحيـاة وبه تمّحى الفوارق الاجتماعية . فالقصة حث على طلب العلم والعمل الدائب من أجله والصبر على متطلباتـه . فإذا اجتمع العلم والخلق الحسن ، وصلا بالمرء غايـة ما تمنى .

وإذا كان المؤلف قد هون الأمر على بطله ، ولم يضع في سبيله أية عقبة أو صعوبة — سوى ما توهمه عن وضعه الاجتماعي — فانه يريد أن يقول أن الباب مفتوح أمام كل طارق . ولذلك لم يوقفه قط موقفا يضطر فيه إلى النظر وراءه أو تمثل الصعاب أمامه لئلا يتساءل — أو يتساءل غيره — إن كان الهدف الذي يسعى إليه يوازي ما واجهه أو سيواجهه من أجله . انها معادلة بسيطة المعطيات واضحة النتيجة . ومثل هذا الموضوع في هذا الإطار ألصق بالقصة القصيرة منه بقصة في

(١) انظر « قافلة الزيت » عدد ربيع الأول ١٤٠١ هـ

مثل هذا الطول . وقد صرح المؤلف أنها في الأصل قصة قصيرة نشرت في مجلة « الإذاعة » ، ولعل هذا مما جعله يجمعهـا إلى القصة الأخيرة في كتاب يسميه « مجموعة قصصية » .

أما القصة الثانية « مشرد بلا خطيئة » فتصور محنة الشعب الفلسطيني في العشرين عاما الأولى منها ، أي في مطلع عام ١٩٤٨ إلى معركة الكرامة في مارس ١٩٦٨ .. قتال ونزوح ونزوح ونزوح فقتال . ولست أجد لوصفها خيرا مما قاله الكاتب في مقدمته : « ... استوحيتها من واقع الألم التاريخي الذي ليس له مثيل ، ذلك الذي عاناه — ويعانيه — اخواننا الفلسطينيون ، منذ أن بدأت أقسى جريمة للتهجير — تناولت شعبا بأكمله — إلى أن وجد هذا الشعب نفسه مرغما على أن يحمل البندقية ويدافع عن قضيته بنفسه ، على النحو الذي نعرفه ونعايشه .. مهمتي إذن كانت هي جمع تلك القطع المتناثرة من اللوحة الأصلية وإعادة تشكيلها في قالب جديد ، فأخذت من الحقيقة وقائعها التاريخية الثابتة ومن الخيال آفاقه التي تشكل الإطار الذي أردته لهذه اللوحة » .

لقد اختار الكاتب قرية عين كارم القريبة من القدس منطلقا لقصته ، وتتبع استماتة رجالها في الدفاع عنها ، ونزوح نسائها وأطفالها إلى القدس فأريحا فعمان ، متحملين شظف العيش وقسوة الحياة ومرارة الغربة وأوجاع الحنين ، ولكنهم لا يطّرحون حلم العودة ، وكلما تضاءل في نفوس الكبار بأفول شمس العمر ثار في الصغار أقوى وأعتى ببزوغ عمر جديد . ولذلك فانهم يكدحون كدح المتشبث بالبقاء ، ويعلمون أولادهم ليكونوا أقدر على مواجهة الحياة ، وليكتسبوا القدرة على الوقوف في وجه تياراتها التي لا تنفك تعصف بهم من كل جانب . حتى إذا جاءت معركة الكرامة أصبح على الشاب منهم أن يعمل ليعيش ، وأن يتعلم لبلوغ مستوى أفضل ، وأن يقاتل دفاعا عن حياته وحقه . انه كفاح مستميت في جبهات ثلاث كلها لا ترحم .

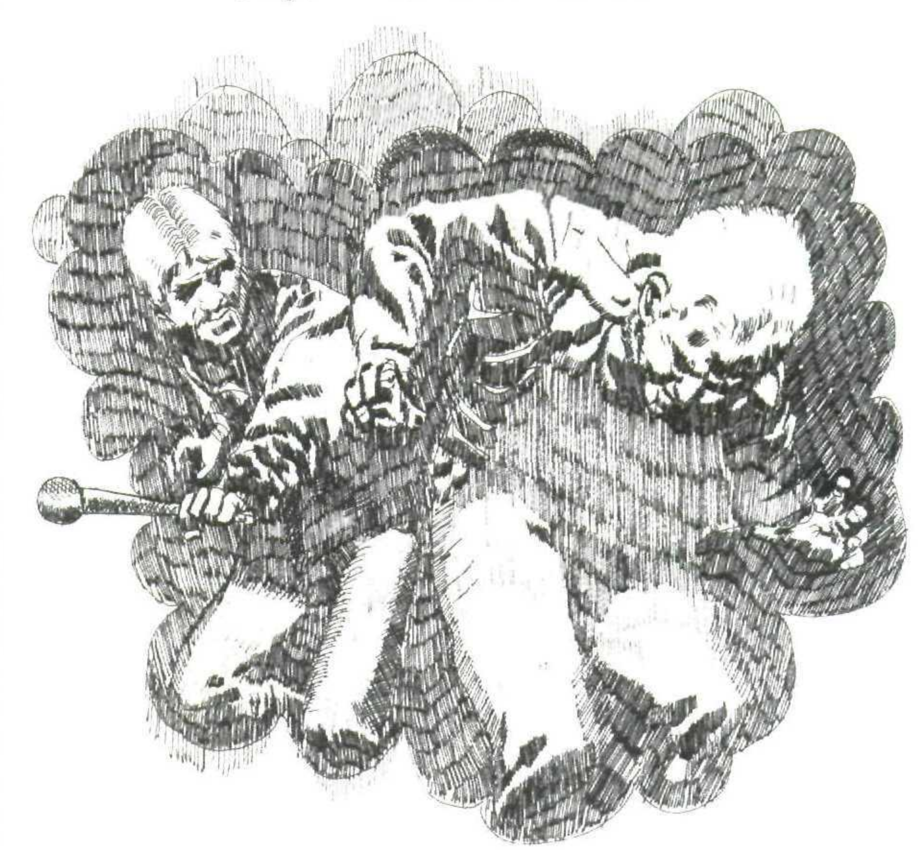
والمؤلف يصرح بأن شخصياته نماذج لا غير . غير أن هذه النماذج — لا كما يكون النموذج عادة — مليئة بالحيوية والحركة والواقعية ، والقصة تعطي — كما أرادها المؤلف — صورة جد واقعية للقضية الفلسطينية بعناصرها الموجبة والسالبة في أسلوب شيق وتفاعل دينامي نشيط . فهي في مجموعها استعادة للواقع في إطار قصصي مثير ، حتى أن القارىء لا يشك في أنه يقرأ عن أحداث وقعت وشخصيات عاشت . ولعل أكثر ما يثير الإعجاب هو نموذج الأم الفلسطينية . فأم إبراهيم نزحت بوليدها من عين كارم وراحت تنتقل به بين المغاور والخيام في هذه البلدة أو تلك طلبا لنجاته ، وانتهى بها المطاف — وهي السيدة العزيزة في بيتها — خادمة في عمّان ليطعم وليدها اليتيم ويتعلم ، وهي لا تطيق فراقه ، وكلما غاب انخلع قلبها خوفا عليه . فلما كانت معركة الكرامة جاء يخبرها أنه ذاهب للقتال ، فما زادت على أن قالت : « وماذا تنتظر يا بني ؟ » كما حمدت الله في القديم امرأة عربية على أن شرفها باستشهاد بنيها الأربعة .

لقد أعجبت بالقصة وقرأتها بتأثر شديد . ومن السهل أن أنثر بضع ملحوظات حول فنية القصة لأوهم القارىء بالموضوعية . غير أنني يجب أن أصارح القارىء بأن الموضوعية في مثل هذا المجال خلة لا أدعيها ولا أطلبها . ومن كان يرجوها مني ، فإنما يكلفني شططا ويحملني ما لا قبل لي به ولا هو من مقتضيات الموقف . وإنما أقابل صنع المؤلف — وقد أجاد — بل صنيعه بالشكر والعرفان .

أما لماذا اختار المؤلف أن يجمع هاتين القصتين في كتاب واحد فقد ألمح إليه المؤلف نفسه . وقد سبق أن ذكرت أن القصة الأولى لا تقف وحدها كقصة طويلة أو رواية وانها رغم طولها تظل ألصق بالقصة القصيرة . ثم أن « اليد السفلى » قصة شاب سعودي يخرج من اسار وضعه في السلم الاجتماعي بكفاحه في طلب العلم ليبلغ به حياة أفضل . وإبراهيم في القصة الثانية طفل فلسطيني تربى في الغربة ، وله غاية وأمل .. غايته الحياة الأفضل وأمله أن يستعيد حقه ، وبالعلم يبلغ غايته وبالبندقية يحقق أمله . وبعبارة أخرى فان كلا منهما يسعى إلى غاية واضحة والطريق إليها واضح ، فعليه أن يكافح على الطريق الواضح على ما فيه من أشواك وعقبات ، وألا يسمح لأية عوامل أخرى بأن تثنيه عن مبتغاه . فالقصتان لهما مغزى يكاد يكون واحدا ، وهما أمثولة للشباب العربي في أي بلد كان □

ليلة السقوط في الأزمة

بقلم : الأستاذ محمد علي قدس / جدة



.. الطريق خالية !!
رطوبة لزجة .. أحس معها باختناق شديد . ليلة موحشة !
سار على رصيف الطريق ناكب الخطى .. يتلفت حوله بحذر . كأنه يرقب شيئا ! .. حدث فظيع ! يا لها من ليلة أشأم من داحس .

* * *

الصوت : أزيز متقطع .. يكسر هدأة الليل في وحشة . صمت عربيد يخضع له كل شيء . دقات قلبه المتعانقة مسموعة لديه بجلاء .. صدره الصاعد والهابط يهتز لها ويرتجف . احساس يباغته من حين لآخر بأنه سيسقط عند قدمه . أصدر ثوبه المسربل على جسده النحيل ، حفيفا متماوجا .. حين لامس أغصان شجرة النيم المنتصبة في وسط الرصيف . تموسقت الأصوات في داخله . فغاص في كابوس بغيض .

الزمن : ليلة من ليالي الجوزاء . انها أشأم من داحس وبراقش !

عرقه يتصبب على وجهه وعنقه ، أنفاسه المتلاحقة في لهث وخوف .. تلهب الجو القاتم ! النسمات مخنوقة كأنها بخار ماء .. يستنشقه في حمام تركي .. رطوبة تحسسها بلزوجة وقرف على وجهه ويديه .

الموقف : أحاسيس بليدة ، وأعصاب تتهالك مع فظاعة الحدث . تمنى لو يكون الأمر مجرد حلم يوشك أن يستيقظ منه . يمضي الوقت رتيبا !! والحدث لازال ماثلا أمام عينيه .. يتجسد في خياله كسيناريو فيلم مثير .. أغمض عينيه . خطواته ثقيلة . يوشك أن يخر .. جاثيا على ركبتيه . قدماه تسوخان كما لو كان يشق طريقه وسط كثبان رملية . انه خائف ، يترقب شيئاً ما .

..انطلقت صافرة أحد العسس — حرّاس الليل — في مكان ليس ببعيد . انشق بصوتها ذلك الأزيز الموحش . جمدت أطرافه . التصق بجسده المتهالك ويديه المرتجفتين في الحائط الذي خلفه . ابتلع في قهر ريقه الجاف . رائحة طينية تعشقت بها أنفاسه ، كانت رائحة الحجارة الآجورية التي تجمد عليهـا . وطفق في مكانه يلهث لهاثا مرجفا .

تلاشت في نفسه أوهام كثيرة حين اندس بكامل جسده خلف باب داره . انتفض رغم طمأنينته .. فقد تخيل

اللحظة بكل تفاصيلها . القطعة الخشبية الملوثة بالدم والجثة الآدمية !

.. زاد انتفـاضه .. حين تفجر الصمت المعربد .. بصوت محشرج : « أين كنت ؟! قلت انك ستعود مبكرا . أبطأت في العودة » !
« عدت مبكرا . مكثت في الردهة طويلا » .. وصمت ! ثم استجمع لهاث انفاسه وقال :
« ... فقط تشوقت نفسي لسيجارة .. فضلت قطع أنفاسها خارج الغرفة .. كي لا أزعجك ... »
« أحسنت . الآن أخلد إلى فراشك . الوقت متأخر . النوم أفضل لك من التدخين الذي أهترأ به صدرك »
قالت جملتها الأخيرة في صوت خفيض .. يكاد لا يسمع !!

.. خلع عن جسمه المتهالك ملابسه ، بيدين مرتجفتين . لابد من إخفاء الثوب خشية أن تكون هناك بقعة دم علقت به . الموت يتجسد أمامه . التفكير والخوف .. لا يوقفان أمواج الشر التي تداهم لحظاته . أحاسيسه مغتالة . وما حدث قد حدث .

.. ليت الأمر كما قال لأمه . لن يكون أي شيء يحدث ، أفظع مما حدث لصاحبه .. وما سيحدث له .

* * *

.. قصيرة هي الحياة مهمـا طال مشوارها . وتصبح تافهة في عيون الذين افتقدوا الأمل وباتوا يعيشون على حافة جرف هار . لكنه يصارع حتى آخر ثانية تبقي في روحه رمق الحياة . تمنى لو يعود الزمن إلى الوراء . لو تعود عقارب الساعة وبضع الساعة . لالتزم الحلم .. وضبط الأعصاب . لو أنه عالج الأمر بغير ما أقدم عليه . ويا لفظاعة ما أقدم على فعله . لأصبح في حال غير الذي هو فيه الآن .

.. التفكير في الحـدث هاجس كبير .. ! والأمر كابوس يشل حركته .

* * *

كان يعلم أن صاحبه لم يرد تحديه ، بل أراد اهانته ، وإلا لما أقدم على منافسته في أمر يفديه بحياته . فهو يعلم أنه و « دعد » يعيشان قصة حب طويلة . ويعلم أنهما قد تعاهدا على أن يكونا حبيبين مدى حياتهما . لكنه أراد أن يحرمه ذلك الحب الذي شغف به قلبه . بل هو لم يؤمن بجمال الدنيا حتى رأى جمال عينيها وصفاء قلبها ، لكن صاحبه ضن عليه بذلك الأمل الذي يعيش به ومن أجله .

منذ أن كان — هو وصاحبه — على مقاعد الدراسة ، والتنافس بينهما شديد . كان هو على درجة من الذكاء نال به حظا وافرا من التقدم المستمر في دراسته ، بينما كان صاحبه متخلفا عنه ولا يحقق نجاحه سوى في مسابقات الألعـاب الرياضية التي كان هو لا يميل إليها .

.. أنانية بشعة تتحكم في سلوك صاحبه . إذ لا يحلو له إلا الأشياء التي يمتلكها غيره .. ويسعى لامتلاكها حتى وإن كان راغبا عنها ، لكنه يريد اشباع غرائزه الشاذة الممقوتة .

وقد تحداه .. في « دعد » .. في أغلى شيء يمتلكه .. وقد أراد بذلك اهانته .. لكنه لم يتصور أن ينتهي الأمر إلى ما انتهى إليـه .

* * *

.. تحطمت نفسه .. وأدرك أنه مهزوم وان بدا قويا . فقد استغل صاحبه نقطة ضعف والد « دعد » .. واستماله إليه بما حظي من ثروة ورثها عن أبيه . وأصبح ذا كلمة ونفوذ عنده .

.. لكنه لم يرد الوقوف .. فاقدا الحيلة وتدبير الأمر . ولن يتخلى عن « دعد » ولو كلفه الأمر حياته . ولما كان .. صاحبه عنيدا .. ولا يحمل في قلبه سوى الحقد والضغينة .. أيقن أن النقاش الهادىء والحوار المنطقي قد يحقق ما لم تحققه المنافسة .

عقد العزم على اقامة ذلك الحوار ، واحتواء الأمر بعقلانية وحكمة !

بكت « دعد » .. للموقف الذي يقف فيه حبيبها . فهو يعيش بين خصمين أبوها وصاحبه .

* * *

.. وفي هذه الليلة الكئيبة . دار الحوار بينه وبين صاحبه في « فيلته » الخاصة التي يعيش فيها وحيدا . وتحدث إليه بلا تعصب . كان يريد أن يثنيه عن رغبته في الزواج من دعد لأنها حبيبته . إذ كيف يخطب ود من لا تكنّ له ذرة من الود . لكنه فاجأه بصراحة . أفضى إليه بكل ما يعتمل في صدره من رغبات محرمة .. ونوايا سيئة . فاصراره على خطبة « دعد » لم يكن حبا فيها .. وإنما إذلالا له . ولم تكن « دعد » سوى شيء من الأشياء التي يملكها غيره ويريد انتزاعها من بين يدي مالكها .

فكر مليا .. لا جدوى من صراع يعلم أنه الخاسر فيه . انه يقف أمام

انسان شاذ .. لا يحد غروره إلا الحزم .

.. تحدثا وتحاورا طويلا .. وبدا صاحبه واثقا من أن الأمور تسير في صالحه ، وخصمه مهزوم مدحور . اتسعت ابتسامة النصر في صفحة وجهه الداكن .. واتسعت شقة الخلاف .

.. لقد تطبع بخصال تراكمت مؤثراتها السيئة في ماضي حياته . فجعلته انسانا غير سوي .

.. مضت الساعة طويلة مملة .. وصاحبه لم يتغير موقفه في شيء . كان متصلبا .. فظا غليظ القلب ..

« أنا لا أحبها .. من قال اني أخضع هواي لامرأة ؟! انها لا تستحق سوى اللعنة ! لكنك لن تنال دعدا قبلي » قالها صاحبه .. وفي عينيه بريق يعرفه منذ كانا تلميذين .. ! الحقد الذي في قلبه جعل منه انسانا غريب الأطوار ، لم يشك قط في أنه رجل مريض . قال له وكأنه يشفق على حاله :

« لن يفيدك هذا بشيء . انك تسلك سلوكا ، تصبح به ممقوتا لدى الناس .. » ، قاطعه صاحبه قائلا :

« منطق الضعفاء . أنت ضعيف بمعنى الكلمة . أنا اليوم أقوى وأقدر منك ! وسأكون كريما معك .. فأنا لا أنسى أننا كنا رفقاء . سأطلقها ، وسأتركها لك بعد أن أشعر بالانتصار » .

.. لم يتمالك نفسه . استفزه بالقدر الذي أفرغ ما في صدره من حلم وصبر . غامت الدنيا في عينيه . نسي كل شيء حوله .. وتذكر أنه أمام مخلوق لا يحمل من هوية الانسان إلا شكله . هاجت أعصابه .. وتحرك بشكل سريع ، وبانفعال تناول قطعة خشبية كانت تزين الطاولة البلورية التي أمامه . لحظات وانهوت على رأس صاحبه . سقط بالقرب منه . الدم ينزف من غادة رأسه .. ! زاغت عيناه في كل ناحية وصوب ..

ـــ القطعة الخشبية التي تأخذ شكل قارب شراعي .. تهتز على المقعد ، وقد تلوثت بالدم مقدمتها .

.. جسد صاحبه ينتفض انتفاضة الشاة الذبيحة .

جثا على ركبتيه ، وتلمس بيدين مرتجفتين صدغيه . بدا هلوعا .. لم يقف موقفا صعبا كهذا . اللحظة تصعقه .

* * *

.. خيّم سكون موحش . استفاق من هول المصيبة . زحف ليطفيء الأنوار ، واتجه نحو النافذة ، أخرج منها نصفه العلوي وتأكد من أن الطريق خالية . القى بنفسه خارجا .. ولاذ بالفرار .

.. الدم يلوث يده .. ! فكر في « دعد » . تصور كيف يكون غده ، لقد قتل صاحبه . لن يكون أي شيء يحدث أفظع مما حدث لصاحبه .. وما سيحدث له .

* * *

كان الثوب لازال عالقا بعنقه . انتفض انتفاضة غريبة .. بعد أن افتقد « طاقيته » .. ليلة أشأم من داحس !! لقد سقطت منه حتما في موقع الجريمة . ستكون دليلا يدمغ التهمة عليه . لقد وقع في مأزق آخر . ذهابه إلى هناك مرة أخرى يشكل خطرا عليه . لابد أنهم اكتشفوا جثة صاحبه .. ويبحثون عن الجاني . كيف يذهب إليهم بقدميه ؟!

* * *

.. هدوء موحش . الصمت يستولى على كل شيء . لم يكتشف الأمر بعد . النافذة التي هرب منها لازالت على فرجتها . تراجع قبل أن يقفز من خلالها . تذكر أن الخلاص لا يأتي مرتين لكن « طاقيته » دليل على اتهامه .. ولابد من إزالة هذا الدليل . ألا يكفي أن الجميع على علم بقصة خلافهما ؟ لو أن غيره أقدم على ما فعل .. لاتجهوا بأصابع الاتهام إليه دون أدنى شك .

الظلام في الداخل يطمس كل شيء . تعثر في شيء قبل أن يصل إلى مفتاح الضوء .. ظن أنها جثة صاحبه . بان كل شيء بعد انتشار الضوء لكنه تجمد في مكانه وتقلص كل عضو في جسده . لا وجود للجثة . القطعة الخشبية الآثمة لازالت في مكانها تلوث المقعد بالدم العالق بها .. والمنتشر حولها . وجثة صاحبه قد اختفت .

.. سرت في جسده قشعريرة مباغتة . أحنى عوده الناحل لالتقاط « طاقيته » الملعونة . شعر بحركة غريبة حوله ، حانت منه التفاتة .. لم يلبث بعدها أن سقط على الأرض مغشيا عليه . فقد سقط جسم ثقيل على رأسه المشحون بأحلام وخيالات غريبة □

تصحيح

وقع سهوا خطأ في اسم كاتب مقال « ايقاعات الرمال في الصحراء » ، الذي ظهر في العدد الفائت ، والصواب هو **يوسف خالد ابو بشيت** . ولذا اقتضى التنويه .

دوامة الأيام

شعر: حسن منصور / خميس مشيط

أسفتُ وما أرى أسفي يفيدُ ... ولا ما ضاع مني قد يعودُ

أرى الأيامَ في كرّ طويلٍ ... لها في سيرها خطوٌ عنيدُ

تسير بلا تــوانٍ أو تراخ ... ولا قلبٍ ولا عقلٍ يقودُ

وتطحننا ولا تبدي اهتماماً ... كأنّا عندها حَبٌ حصيدُ

ونحيَا كلّ يومٍ من جديد ... ويبهجُنا من الدنيا الجديدُ

وفي دوّامة الأيامِ نمضي ... وما اقترَبتْ لعينينا الحدودُ

كأنا في عُبابٍ في ظلامٍ ... ونغفلُ والدروبُ هناك سودُ

فإن برقَتْ لنا ذكرى تولّتْ ... وشفّ القلبَ وجدٌ لا يبيدُ

رجعنا والحنينُ لنا رفيقٌ ... ودمعُ العينِ من حزنٍ يرودُ

وزاد الشوقُ للماضي فَطِرنا ... بأجنحةٍ تناجيها العهودُ

إلى حلم ، إلى عبث بعيدٍ ... إلى عمرٍ مضى وهو البعيدُ

نغنّي مثلَ طيرٍ وهو يدمى ... وإن كان التغني لا يفيدُ

فيا لله ما أغلى الأماني ... وما أحلى إذا كانت تزيدُ

فلا نامَت عيونٌ لا تراها ... إذا كانت عن الأبقى تحيدُ

ون في القاهرة .

تصوير : عبد الله الدبيس





الشوارع الفسيحة والأشجار الباسقة والمجمعات الحكومية والعمارات السكنية الحديثة ، من الملامح المميزة لمدينة أبها . تصوير : علي عبد الله خليفة